القسم الثالث

محاولة الانشاء من جديد

الفصل الأول

لوك ومذهب التجربة [1]

لم يكن بد إذن من بدء الرحلة الطويلة من جديد ، وتوجيه القافلة البشرية إلى طرق أخرى ، صوب أهداف أخرى .

وكان الواجب يقضى بادئ ذى بدء ، باجتناب مذهب الارتيابية ، الذى كان بايل نفسه يخشاه . « المناقشة فى كل أمر دون اتخاذ قرار إلا إرجاء الحكم » ، هذا مايؤدى إلى الخمود ، بل إلى الموت . فمذهب الارتياب ، ولو أنه معوان صادق يضمن للعقل حريته فى الاختيار ، قد انتهى به الأمر إلى القضاء على الارادة ، بل إلى قتل كل احتمال فى الاختيار . فالأمر لايتعلق بالمناقشة غير المجدية ، والموازنة بين ما للشئ وما عليه ، le pour et le contre بل يتعلق بالاسراع نحو أقاصى السعادة .

لقد شرح فونتنل لتلميذته المركيزة (٢) — وهما يتأملان النجوم سويا — أن الفلسفة تقوم على أسرين : أن لدينا ذهناً مستطلعاً وعيونا كليلة . حتى إن الفلاسفة يقضون حياتهم فى عدم التصديق بما يرون ، وفى محاولة إدراك مالا يرون : وتلك حالة لا تطاق . وقد كان الأوفق ألا نشغل البال بما لا نرى ، وأن نصدق بما نرى . وإن منهجا للحياة يحقق هذين الشرطين ، ليكون خيراً للناس ، فانه ينقذهم من الشك .

ولتحقيق هذا الغرض ، يتدخل لوك .

---

(١) L'Empirisme .

(٢) أراد فونتنل أن يشرح فلسفته فى أسلوب شائق ممتع ، فقدمها فى شكل محادثات بين فيلسوف ومركيزة تتتلمذ عليه . والكلام الذى أورده المؤلف مقتطف من كتاب فونتنل « ابتسام العقل » ... Fontenelle : *Le Sourire de la Raison* . [المترجمان]

***

لقد ظهر فى الوقت المناسب ، كرجل مصلح محسن ، لأنه أثبت قيمة الواقع وسمو فضله . ولا نقصد الواقع التاريخى الذى أنكر وأدين وألغى . إذ تلك مسألة لا يستطيع امرؤ أن يعود إليها ، فقد بت فيها . فالوقائع المفقودة فى غياهب ماض لا بعث له ، لم تعد تصل إلى الناس ، إذا أرادو أن يعيدوها إلى وضح النهار ، — إلا سيئة التفسير ، مزورة ، كأنها بالكذب ملطخة ؛ فلم يستطع ذوو العقل السليم أن يثقوا بها . لم يكن بد من يقين آخر ، وجون لوك هو الرجل الذى كشفه .

ذلك أنه يبين للمفكرين الحقائق السيكولوجية ، الكامنة فى النفوس ، حية ، لم يعتورها فساد . والعقل ، فى هذا الميدان ، يعين ولا يشل ؛ فهو ليس ملزما — مهما أوتى من حذر — بتسجيل معارف أولية تبعد عن متناول النقد فحسب ، بل يجد أيضاً غبطة فى الكشف عن ظروف نشاطه الخاص ، التى كان يجهلها . هكذا يقبل العقليون تحالفا ينقذهم من الشك ؛ فالتفكير فى القرن الثامن عشر ، الذى تمتد جذوره إلى القرن السابع عشر ، — عقلى rationaliste فى جوهره ، وتجريبى empiriste بالاتفاق .

كان لوك يبدو وكأنما قد خلق خصيصاً ليكون فيلسوفا بحق . فهو أولا انجليزى : ولذا فهو عميق التفكير . ثم إنه لم يقنع بدراسة الميتافيزيقا ، بل درس العلوم التجريبية ، الطب ؛ فقبلما ينشغل بالروح ، اهتم بمعرفة الجسد: وهذه حيطة طيبة أهملها الخياليون . وقد شارك فى الشئون العامة ، فكان كاتم سر للورد أشلى Lord Ashley كونت شافتسبرى وموضع ثقته ، ثم فقد هو وسيده حظوتهما لدى الملك ، ونفى إلى هولاندة ، ثم رجع ظافراً مع وليم أورانج ، فكان من أولئك الذين أسسوا انجلترا الجديدة ، التى لا تغلب. ولكنه كان عاقلا فى قناعته بالوقوف فى الصف الثانى ، فقد استطاع بتواريه قليلا أن يشاهد ما جبل عليه الناس من ختل ودهاء . ولما كان مسقاما قليلا ، فانه لم يستغرق فى الحركة والنشاط بالمتعة التى يجدها الأشداء : بل تصرف بتحفظ وحكمة كأنما ليحسن التفكير . وقد زادته رحلاته مرونة ، فقد أقام طويلا فى جنوب فرنسا دارساً عن كثب ذلك الشعب الذى ليس كريها ،

وإن بدا غريباً : فدرس أخلاق الفرنسيين ، وغذاءهم ، وكيف يفكر منهم من يفكر ، وكيف يعمل منهم من لا يفكر ؛ وكيف كانوا يصنعون تلك المنتجات اللذيذة التى لا توجد فى انجلترا ؛ الزيت والنبيذ ؛ وكيف ولماذا كان فلاحهم تعساً . وقد صادق فى باريس الأطباء والفلكيين ومختلف العلماء ، والبحاث والقلقين les inquiets . ولكن هولاندا كانت أنفع له ، إذا صح أنه لا مدرسة أكثر فائدة ولا أقسى من مدرسة المنفى . ولما طرد من بلاده ودار فى بلاد « اللجأ » تائها معاشراً دعاة الاصلاح ، والخوارج ، ومعارضى الأورثوذوكسية ، رجع إلى مدرسة التفكير . وأخيراً أصبح مربياً ، وهذا أيضاً نوع من التعليم ؛ ولأى تليمذ ! لابن حاميه لورد أشلى — شافتسبرى ، الذى سيطالب قريباً بمكانه بين أعلام الفلسفة الجديدة . وجون لوك رجل مهذب gentleman لعدم زهوه بعلمه ، ولبعده عن العجرفة ، ولبساطته وحكمته ، (باستثناء بعض نوبات من الغضب الشديد) ولأنه محبوب فى الحياة كما هو فى كتبه ، ولما يزدان به خلقه من نبل طبيعى . وهو لا يشبه الأستاذ ذا الرداء التقليدى والقلنسوة المربعة فى شئ ؛ لا يتيح له صدره الضعيف أن يصيح من فوق المنبر ، بل هو يخاطب الدنيويين فى إسهاب وأناة . فالفلاسفة الحقيقيون سيكونون فيما بعد من الدنيويين ؛ لن ينتخبوا — إلا فيما ندر — من بين رجال الدين ، ومن بين أساتذة السوربون أو السابينزا : بل سيندمجون فى الحياة لكى يديروها .

***

ابتدأ بفلسفة المشائين التى درسها فى أكسفورد ولم يستسغها . وظل مدة طويلة ، يبحث عن طريق ، متخذاً من باكون وغاسندى وديكارت أدلاء : ولكنه لم يكن يثق إلا بنفسه . فى شتاء سنة ١٦٧٠ — ١٦٧١ ، بينما كان يتحدث فى الفلسفة مع بعض أصدقائه ، وجد أنه كان فى حاجة إلى قاعدة أكيدة ؛ فمبادئ الأخلاق والدين المنزل لا يمكن أن تقوم على أساس سليم ، مالم « نفحص مقدرتنا الشخصية ونعرف أى الموضوعات تقع فى متناولنا وأيها فوق إدراكنا . » إذن ، لابد من أن نقدر قوات الادراك بالتدقيق قبل أن نشرع فى أى خطوة أخرى ؛ ولا ينبغى أن نعيش على الاحسان ، ولا أن

نركن فى كسل إلى آراء الناس ، ولا أن نهتم بما إذا كنا فى حماية أفلاطون أو أرسطو ، ولا أن نقسم بأقوال الأساتذة ؛ بل بالعكس يجب أن نجعل من الحقيقة هدفنا الوحيد ، وأن نتوسل إليها بروح الفحص . إنك تجد ، فى بداية حياة لوك الذهنية ، نفس هذا العزم على الاستقلال ، ونفس هذه الحاجة إلى التجديد ، ونفس هذه الرغبة فى ألا يعتمد إلا على تفكيره الذاتى ، وهذا ما كان يختمر فى الضمائر إذ ذاك .

إن هذا المنهج ليس من فعل رجل منعزل . بل يخيل إلينا أننا نسمع أولئك الأصدقاء الذين يسألون لوك ، لأنهم فى حاجة إلى أن يطمئنهم ؛ ويفوضون أجدرهم بايجاد فلسفة تسكن ارتيابهم ، وهم بذلك إنما يترجمون عن مقتضيات زمنهم . إن لوك قد استدعاه زمنه ؛ إنه ظل طول مدة تعليمه على صلة مباشرة مع معاصريه ، مستمعاً إلى سؤالهم ، ذلك السؤال الخالد الذى أصبح عويصا ، لأن الأجوبة التقليدية لم تعد تكفى وهو : ما هى الحقيقة ؟ Quid est Veritas ? عليه أن ينطق بهذه الحقيقة الجديدة . ويبدأ منذ عام ١٦٧١ يسطر على الورق بعض الأفكار التى سرعان ما كونت مجموعة كان يمكنه أن يطلع بها على الجمهور كما هى عليه ؛ ولكنه سينتظر قرابة عشرين عاما فى استكمالها وتجربتها ، مطلعاً خاصة أصدقائه على مخطوطه : لا منعزلا بل اجتماعياً .

كان يفكر ويشتغل ، ويعمل شيئاً فشيئا على استكمال مذهبه ، سواء فى طرق فرنسا ، فى الفنادق ؛ أو فى لندن فى وسط ضجيج السياسة ؛ وفى أكسفورد ملجئه العزيز ؛ وفى روتردام وأمستردام وكليف . وأخيراً عندما شرح نظرياته، شهد الناس أن لديه قدرة نادرة على إضفاء الحيوية على أى موضوع يطرقه . لأنه لم يقتصر على الفلسفة المحضة ، بل كان يروق له أن يبدى رأيه فى الدين وفى السياسة وفى البيداجوجيا ؛ وكلما نشر كتابا أثار أصداء لا نهاية لها . لست أرى رجلا غيره ، لم يكتب شيئا إلا بدا جوهريا ، سوى جان جاك روسو ؛ الذى كان يثير دائما اشتعالا كلما تكلم فى الدين أو السياسة أو البيداجوجيا . إلا أنك لا تجد لدى لوك — الذى تخفى رصانته لهيبه — تلك الحرارة التى يشعل بها روسو كل من يقربه . ولكنه استشعر قبل روسو ، نداء الضمائر فاستجاب إليها : هنا سر قوته الفعالة . إن كتبه تبدو كحادثات تؤثر على القارئ ولا تسمح له بالانصراف إلا مقتنعاً ، فهى تقنعه بالتكرار مائة

سرة ، وتكسبه فى صبر وأناة ، إن ألفاظها تطوقه وتستبقيه . أما وسائله ، فهى الأدب الرشيق ، وجزالة الأسلوب ، وشئ من التدفق الواضح . فالغموض ، والاغراق فى التركيز ، والتغالى فى التعمق ليس من شأنه ؛ بل هو لا يقبل غير الواضح المبين ؛ ويتألم عندما يجادل روحا ميتافيزيقيا كروح مالبرانش . « يجب الاعتراف بأن لدى هذا الفيلسوف تعبيرات كثيرة لا تقدم لعقلى أفكارا واضحة بينة ، ولذا فهى ليست سوى أصوات لا تستطيع أن تأتيه بأى نور . . . » — « هنا أجد نفسى أيضاً فى ظلام كثيف . . . » — « يخيل إلى أن أى كاتب يحشم نفسه مشقة التعبير عن أفكاره فى غموض ، لم يكن لينجح كما نجح الأب مالبرانش هنا . . . » . ما أبعد لوك عن هذا الغموض ! — « بما أنى لم أقصد من نشر هذا الكتاب ، إلا أن أكون مفيداً بقدر ما أستطيع ، فقد اعتقدت أنى ملزم بجعل كلامى واضحا مفهوما بقدر الامكان ، لكل أنواع القراء . أفضل أن يشكو أصحاب العقول النظرية والثاقبة من أنى أضجرهم فى بعض صفحات كتابى ، على أن يعجز بعض الأشخاص الذين لم يألفوا المطالعة العلمية والمجردة — أو الذين أشربوا معارف تناقض ما أقدم لهم — عن إدراك معنى كلامى أو فهم أفكارى . . . »

ذلك هو شعوره وتلك هى طريقته . أفلم تكن أيضاً علامة من علامات الزمن ، هذه الارادة الصريحة فى ألا يقصد المؤلف إخصائيي الفلسفة فحسب ، وأن يغضب عند اللزوم العقول « النظرية الثاقبة » ، بل يخدم كل الذين يبحثون عن قاعدة صالحة للحياة ؟

***

وأخيراً ظهر كتابه فى عام ١٦٩٠ ، تحت عنوان متواضع ، « مقال عن الادراك الانسانى » *An Essay concerning human understanding* . ومهما قال أولئك الذين لا يحبون فى الفلسفة « الألعاب الكبرى » أى الموضوعات العميقة فانه كان تاريخ تبدل قطعى ، تاريخ اتجاه جديد . لقد أتيح للانسان منذ ذلك اليوم أن يتخذ من ثروة العقل الانسانى اللانهائية موضوعاً لأبحاثه . يقول لوك : فلندع تلك الفروض الميتافيزيقية : ألم نر أنها لم تؤد أبداً إلى نتيجة؟ ألم نتعب من أسئلتنا غير المجدية ؟ من استطاع أن يحدد طبيعة الروح

وجوهرها ؟ أن يبين أى حركات يلزم أن تثار فى عقولنا الحيوانية ، أو أى تبدلات يجب أن تحدث فى أجسامنا لكى تولد — بوساطة أعضائنا — مشاعرنا وأفكارنا ؟ إن الجسد يخضع للروح ، إن الجسد يؤثر على الروح : وما تكاد الميتافيزيقا تتدخل حتى يصبح هذا الواقع التجريبى ، الذى هو واضح كل الوضوح فى ذاته ، سرا لم يعمل العلماء إلا على زيادة غموضه ، فلندعه ؛ فلا مدعاة للاهتمام به . إذا كانت هناك جواهر خارجية عنا (ولا شك فى أنها موجودة) ، فليس لدينا أى وسيلة لندرك حقيقة كيانها ، فلماذا نحاول إدراكها بأى ثمن ؟ فلندع فيما بعد هذا البحث المؤيس الذى لا رجاء فيه .

إن اليقين الذى نحن فى حاجة إليه موجود فى نفوسنا فلننظر إلى هذه النفس ، ونحول عيوننا عن ذلك الامتداد اللامتناهى الذى يخلق السراب ولنركز بصرنا عليها . أما وقد عرفنا أن إدراكنا محدود ، فلنقبل حدوده هذه ؛ ولندرسه كما هو ، ولنعرف كيف يعمل . فلنلاحظ كيف تتكون أفكارنا وتتركب ، وكيف تحتفظ بها ذاكرتنا ، فقد كنا نجهل ذلك العمل الاعجازى حتى الآن . هنا نجد المعرفة الصحيحة ، المعرفة الأكيدة الوحيدة : وما أغناها بالمرئيات حتى لا تكاد الحياة تكفى للتأمل فيها :

« إن مثلنا فى هذا الصدد مثل البحار الذى يركب متن البحر . يفيده جداً أن يعرف طول حبل مسبره ، وإن كان المسبر لا يكفيه دائما لتعرف مختلف أغوار المحيط : يكفيه أن يعرف أن الحبل من الطول بما يكفى ليصل إلى القاع فى بعض أرجاء البحر التى تهمه معرفتها لكى يحكم رحلته ، ولكى يجتنب مواطن الخطر . فان شأننا فى هذه الدنيا ليس أن نعرف كل شئ ، بل أن نعرف ما يتعلق بتوجيه حياتنا . فاذا كنا نستطيع أن نجد القواعد التى يمكن لمخلوق عاقل كالانسان — بالحالة التى هو عليها فى هذه الدنيا — أن يستعملها ، ويجب أن يستعملها ، ليدير مشاعره وما يتصل بها من أفعال ؛ — أقول ، إذا كنا نستطيع أن نصل إلى هذا الحد ، فلا ينبغى أن نتزعج لوجود أشياء أخرى فوق متناول إدراكنا (١) . »

---

(١) عن إدراك الانسان — مقدمة — ترجمة بيير كوست ، Pierre Coste .

أو فلنقل بألفاظ أخرى — (لأن لوك لا يخشى أن يكرر كلامه) — : ماذا علينا أن نفعل فى هذه الدنيا ؟ — معرفة الخالق بما نستطيع أن نعرفه عن المخلوق ؛ معرفة واجباتنا ، ومواجهة مقتضيات حياتنا المادية . ولا شئ غير ذلك . ومهما كانت قدرتنا ضعيفة غير ضئيلة فقد خلقت متناسبة مع هذه الاحتياجات ، إذن ، فلندع البحث عن معرفة كاملة مطلقة بما يحيط بنا من أمور تخرج عن متناول المخلوقات الفانية ، — ولنقنع بما نحن عليه ، ولنفعل ما نستطيع أن نفعل ولنعرف ما نستطيع أن نعرف . . .

والواقع ، أنه ما يكاد عقلنا يحاول الخروج عن دائرته المحدودة للاتجاه صوب العلل ، حتى نرى أن هذا البحث لا فائدة له إلا أن يشعرنا بقصور معارفنا : إذ نصطدم بسياج من الظلام . وعلى النقيض ، لو أننا قنعنا بالدائرة المخصصة لنا — كالرواد المتواضعين ، لاكتشفنا عالما من العجائب ، ولظفرنا بالحكمة ، والسعادة . فهل يجب أن نتردد فى الاختيار؟ لنطّلق المستحيل ، فلن نخشى السقوط فى الهوة إذا أحكمنا قبضتنا على الوقائع الأكيدة التى يمكن أن تتناولها أيادينا مهما كانت ضعيفة .

والقيمة الابداعية لفلسفة لوك ليست فى اطراح الميتافيزيقا ، وهو ما قبلته ضمائر عديدة من قبل ، بل هى فى تحديد جزيرة والاحتفاظ بها فى لجة المحيط الهائل الذى يزيغ فيه البصر .

***

وفوق ذلك فان عليه أن ينظم هذه الأرض التى يريد إنقاذها من الارتياب . ينبغى أن يعد المعرفة المسلم بها l'a priori كأنما لا وجود لها : يا للتغير ...! يجب أن يبدأ كل الفلسفة من جديد على صورة أخرى ، كل الفلسفة ، منذ أرسطو إلى أحدث الفلاسفة ، فلاسفة مدرسة كمبردج المعروفين باسم الافلاطونين الجدد Néo-Platoniciens (١) ، و «كادورث» والآخرين ، الذين يدعون بعث الأفكار . لا توجد أفكار غرزية . ففكرة الأبدية ليست غرزية ؛ ولا فكرة

(١) Néo-Platoniciens مذهب فلسفى ظهر فى الاسكندرية فى القرن الثالث بعد المسيح ، وكان من أبطاله فلوطن Plotin وبورفير ... وهذا المذهب يخلط أفكار أفلاطون ببعض أفكار صوفية . [المترجمان]

اللامتناهى ، ولا فكرة المماثلة ، ولا فكرة الكل ولا فكرة الجزء ، ولا فكرة العبادة ، ولا فكرة الله . حين يبدأ المخلوق فى الحياة ، من المستحيل أن نميز فيه تلك الحقائق المزعومة التى لا ندرى من أين جاءت ، ولعلها مخترعات تفكير نظرى قد اتخذ صوراً عديدة ، من يونانى إلى مدرسى وحديث ، ولكنه لم يقدم لنا سوى كلمات . فلنطرح تلك الأشباح . إن الفكر لوحة بيضاء تنتظر نقش الحروف عليها ؛ إنه غرفة مظلمة تنتظر وصول أشعة الشمس .

هناك عنصر إيجابى يكفى لبناء كل شئ من جديد : الاحساس . إنه يأتى من الخارج ، يصدم الفكر ، ويوقظه ، وسرعان ما يملؤه . وهو يقدم لنا أكثر الأفكار تركيبا وتجردا مما ينتج من عمل النفس على أساس معارفها الذاتية ، بعد ترتيبها والوصل بينها . بالاحساس ، لا شئ أسهل من بناء نظرية عن المعرفة ، بديهية كانت أو بيانية ، تهيئ لنا يقينا ثابتاً مكينا . فالنسبة لم تعد بين الفاعل والموضوع (أى النفس والأشياء) ، بل هى أبسط من ذلك بكثير ، بين الفاعل والفاعل (أى النفس والنفس) ؛ وبذا ، لم يعد الكفاح ضد أسباب الضلال إلا مسألة داخلية ، اتخاذ بعض التحوطات والاحتفاظ بها . مادام العقل ليس له موضوع آخر لتفكيره واستدلاله إلا أفكاره الخاصة ، وهى الشئ الوحيد الذى يتأمل أو يستطيع أن يتأمل فيه ، فانه بديهى أن كل معرفتنا لا تستند إلا على أفكارنا . . . « يبدو لى أن المعرفة ليست إلا إدراك مابين فكرتين من أفكارنا من اتفاق أو اختلاف . . . » حتى إن علمنا ، علمنا البشرى ، محتمل كل الاحتمال ومؤكد كل التوكيد فى نفس الوقت .

فلنسلم للوك بمبدئه هذا عن الاحساس الغرزى ، نجده على الفور يعيد بناء علم الأخلاق من جديد . نحن نشعر بالمتعة وبالألم ، ومن هنا نكتسب فكرة المفيد والمضر ، وتتبعها فكرة المباح والمحرم ، وبالتالى فكرة أخلاق لاتستند إلا على حقائق سيكولوجية ، أخلاق لها لنفس هذا السبب صفة يقينية ، لم تكن لتتوافر فيها لو أنها قامت على بعض التزام خارجى . فبما أن اليقين ليس إلا إدراك ما فى أفكارنا من تناسب وتنافر ، وبما أن البيان ليس إلا إدراك هذا التناسب باستعمال أفكار وسيطة : وبما أن أفكارنا الأخلاقية — كالحقائق الرياضية سواء بسواء — مجردات يؤلفها الفكر ؛ فلا يوجد فرق نوعى بين هذه وتلك والاثنتان أكيدتان .

هكذا يستعاض ، رويداً رويداً ، عن الوضع الدجماطيقى بنظرية تقوم على التجربة ، تكشف وتسجل كل أفعال حياتنا السيكولوجية . ما أصل اللغة ؟ هل وضع الله فينا ذلك الترجمان الاعجازى ببعض أسباب من مشيئته ؟ نحن لا نعرف عن هذا شيئا ، ولكنا نعرف جيدا أن للانسان أعضاء مهمتها النطق بأصوات مفصلة ، وأنه يترجم بفضل تلك الأصوات ، عن التبدلات التى تشعر بها حساسيته ، وأن الكلمات تصبح علامات خاصة ، ثم عامة للأفكار . هذه كل البلاغة وهذا كل فن الكتابة ؛ فليكف الناس عن التحدث إلينا عن أبحاث فى الأسلوب أو فى فن الشعر ، مالم تستند على هذه الملاحظات البسيطة . إن الكاتب الذى يعرف مصدر الكلمات ومهمتها ، سوف يتجنب استعمال الكلمات التى لا تتضمن أى فكرة واضحة ؛ وسوف يستعملها بشكل ثابت ، وإلا خلط بين الأفكار التى ليست هذه الكلمات غير علامات لها ، وسوف يتجنب الحذق والدهاء والتفخيم : ذلك التغرير . بما أن المقصود من اللغة هو أن ندخل أفكارنا فى ذهن الغير ، فالذى يجيد الكتابة ، ويجيد الكلام هو من يستعمل وسائل الأسلوب فى هذا الغرض . فالنحو نفسه ليس من عمل بعض العلماء الأدعياء ، الذين يفرضون أهواءهم على تلامذة مساكين ، بل له منطقه الخاص ، ويجب إقامته على أساس الاحساس .

لأن يشاهد الانسان نضج التفكير البشرى ، وفى نفس الوقت قيام العقائد التى تتيح له حياة سعيدة ، واعياً أنه لا شئ إلا ويتولد من أفعاله الخاصة سواء فى ذلك العلم أو الاخلاق أو الفن : أهنالك منظر أجدر من ذلك بتهيئة الاهتمام والسعادة والزهو للمشاهدين ؟ ولا نقصد زهو ذلك الذى يتحدى الآلهة ، مادمنا لا نستطيع أن نعد من يعترف بجهله ، ويرتضى هذا الاستسلام الهائل ، من بين الموقفين ، إلا إذا ضحينا وصغرنا من شأنهم . وإنما نقصد الابتهاج الذى يشعر به رجل كان مشرفا على الغرق فى الأغوار ، ثم توصل إلى الشاطئ فبنى كوخا بيديه الحكيمتين القديرتين . إن العنوان الذى اختاره لوك يبدو متواضعاً ؛ فالأمر لا يتعلق إلا « بمقال » Essay ؛ ولكنه مقال عن الادراك الانسانى : عجيبة العجائب . إنه يتضمن مبدأين فقط : تأثيرات الأشياء الخارجية على الحواس ، وعمل الروح الذى يتلو هذه التأثيرات . وهذه المبادئ ، إذا وقفنا على نشاطها ، ودرسناها وحللناها ،

تكفى لاشباع حب استطلاعنا ؛ إلى هذه الدرجة تأتى بالمعجزات ، وإنها لمعجزات حقيقية . سيتوالى كثير من العلماء قبل أن نعرف على التحقيق ما الارادة ، والذكريات ، وصور الخيال . إن الادراك منجم لا يفرغ ، يعطى معدنا صافيا ، صفته لا تخدع . « عندما يتعمق الناس البحث إلى أبعد مما تسمح لهم مقدرتهم ، مستسلمين فى عرض ذلك المحيط الواسع حيث لا يجدون قاعاً ولا شاطئاً ، فلا عجب أن يكثروا من الأسئلة ، ويضاعفوا المشاكل التى لا نفع لها بما أنها لا يمكن أن تجد حلا واضحاً اللهم إلا اضطراد شكوكهم وازديادها ، ووقوعهم آخر الأمر فى ارتياب محض . » وبالعكس ،

« إن معرفة عقلنا وحدوده تكفى لعلاج الارتياب والاهمال الذى نستسلم إليه عندما نشك فى مقدرتنا على كشف اليقين » .

***

يمدح لنا بيير كوست التوفيق الذى لاقاه مؤلف الأستاذ ، فى المقدمة التى دبجها للطبعة الثانية باللغة الفرنسية : « مقال فلسفى عن الادراك الانسانى » (١٧٢٩) : « إنه أروج مؤلف لواحد من أعظم العباقرة الذين ظهروا فى انجلترا فى خلال القرن الأخير . لقد نشرت منه فى حياة لوك أربع طبعات بالانجليزية خلال عشر سنوات ، وبما أن الترجمة الفرنسية التى نشرتها فى ١٧٠٠ جعلته معروفا فى هولاندا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا ، فقد اشتهر فى هذه البلاد شهرته فى انجلترا ، إذ لم ينقطع الناس عن التعجب مما يسود هذا الكتاب من أوله إلى آخره من عمق وسعة معلومات ودقة ووضوح . وأخيراً فان مما يرفع هذا الكتاب إلى ذروة مجده ، مالقى من تقدير فى أكسفورد وفى كمبريدج ، حيث يدرسونه ويشرحونه للشباب كأصلح كتاب لتهذيب عقولهم وتنظيم وتوسيع معارفهم ؛ حتى إن لوك يحتل الآن مكان أرسطو وأشهر شراحه فى هاتين الجامعتين الشهيرتين . »

إن رواج كتاب فلسفى لمغامرة فكرية كبيرة على الدوام : أما رواج كتاب لوك فقد تم بسرعة لم يسبق لها مثيل . لقد استفاد لوك من الوسطاء الذين أوجدتهم تحت تصرفه التبدلات التى حدثت فى أوربا . وكان صحفيو هولاندا أول من نادوا بشهرته ؛ وعلى الأخص جان لى كلير ، فى « المكتبة العالمية » :

مقتطفات من كتاب انجليزى لم يظهر بعد ، عنوانه مقال فلسفى عن الادراك الانسانى ، يشرح فيه المؤلف مدى معارفنا الأكيدة وكيفية الوصول إليها . » هناك منفيان ، أحدهما دافيد مازيل ، والثانى بيير كوست الذى لم ينقطع الناس عن ذكره كأنه ظل للمؤلف — فسر أحدهما تفكيره السياسى والثانى تفكيره الفلسفى . مات لوك فى عام ١٧٠٤ ؛ ومنذ عام ١٧١٠ قدمت ترجمة « مؤلفاته المختلفة » إلى الجمهور الفرنسى جوهر ما كتبه . وفى ألمانيا ، قرأ توماسيوس « المقال الفلسفى » نحو عام ١٧٠٠ ، فجعل منه هذا الكتاب أحد المبشرين بعهد الأنوار : إن لوك يقف فى منحنى الطرق الأوروبية التى تقود إلى العصر الجديد .

والحق أن تفكيره قد تعرض لبعض التبدلات . فمهما كان مذهبه يقوم على التجربة والحس ، فانه أوحى مع ذلك بمثلية بركلى Idéalisme (١) : وعلى كل ، فان ذلك لا يعد أكبر مغامراته غير المنطقية ؛ لأننا ، إذا صرفنا النظر عن النقطة التى بدأ منها ، وعشنا فى داخل نظريته الفلسفية ، لوجدنا أنفسنا لا فى عالم الحقائق بل فى عالم النسب والصلات . لم يرد ، بأى ثمن كان ، أن يدمجه الناس مع الماديين ، بل كان على النقيض يؤكد وجود كائن أبدى ، جوهر مفكر ، لا حد لحكمته ؛ وكان فى بيانه المسهب الدقيق صفة من الاصرار بل من التعاظم ؛ إذ يثبت فيه أن المادة لا يمكن أن تشترك فى الأبدية مع روح أبدية(٢) . ولكنه قال عرضا — وكأنما قد فتنته الفكرة التى كونها عن عظمة الله وجلاله — إن الله كان فى قدرته ، على كل حال ، أن يعطى « لبعض كتلة من المادة — إذا وجد ذلك مناسبا — قدرة الادراك والتفكير . . .(٣) » وكانت هفوة ، هاجمها اللاهوتيون فى الحال ، هفوة استشفها فولتير(٤) واستغلها ، وأذاعها ، حتى انتهت إلى تأويل معكوس

---

(١) مذهب فلسفى يعتبر الأشياء صوراً عقلية لا أجساما مادية . [المترجمان]

(٢) مقال فلسفى ... القسم الرابع ، ١ .

(٣) مقال فلسفى ... القسم الرابع ، ٣ .

(٤) قولتير : قال لوك بكل تواضع : « لعلنا لن نستطيع أن نعرف ما إذا كان مخلوق مادى صرف يفكر أو لا يفكر . » ... مثل المعتقدين بالخرافات فى المجتمع مثل الجبناء فى الجيش يمتلكهم الرعب بلا داع . لقد صاحوا إن لوك يريد أن يقلب الدين =

لمؤلفه كله : أصبح لوك ماديا برغمه . لكنه كان يريد أن يكون مسيحيا ، وكان التمييز بين العقل والايمان مما يشغله كثيراً : ففائدة العقل « كشف اليقين أو أرجحية المحمولات والحقائق التى يتوصل إليها الذهن باستنباط مستمد من الأفكار التى يكتسبها باستعمال مقدراته الطبيعية أى بالاحساس أو بالتفكير » — أما الايمان فهو « تقبل كل قول لا يستند هكذا على استنباط العقل بل على الثقة بقائله ، على تقدير أنه يأتى من قبل الله ببعض اتصال خارق للعادة . هذه الطريقة فى كشف الحقائق للناس هى ما نسميها بالوحى » . إذن فقد كان مؤمنا بالوحى ، بالرسالة الالهية للمسيح ، بسلطة الانجيل ، بالمعجزات ؛ كان يعتقد أن أشد الناس وسوسة ، وأغرقهم فى الارتياب ، لا يمكن أن تخالجهم ذرة شك فى الوحى الانجيلى : وهذه كانت ألفاظه بالذات . ولكن بما أنه كان — من جهة أخرى — يلخص العقيدة إلى نهاية صغرى : الايمان بالمسيح والتوبة ؛ وأنه كان يقول إنه لا يشترط شرط آخر لانقاذ الأرواح إلا قبول رسالة المسيح ، والتزام سلوك طيب ؛ وبما أنه كان يرفض الاعتقاد بأن كل سلالة آدم قد حكم عليها بعذاب أبدى لا نهائى من أجل خطيئة الرجل الأول ، الذى لم يسمع عنه قط ملايين من الناس : فقد كانوا إذ ذاك يعدونه بين ناكرى الوحى ويشبهونه بتولاند ، ويضعون مؤلفه « المسيحية المعقولة *Christianisme raisonnable* » بجانب « المسيحية دون أسرار » : وكان ذلك يؤلمه أعمق الألم ، لأنه إنما كان يقصد على التحقيق أن يرد الايمان إلى أولئك الذين نبذوا الدين بفعل آلية التقاليد وغموض العقائد وتباين المذاهب ؛ ولأنه إنما كان يريد أن يثبت أن الدين الطبيعى لا يكفى فى ذاته ؛ ولأنه أخيراً إنما كان على التحقيق يريد إفحام المعترفين بالله الناكرين للوحى ، Deistes ، المتذرعين فى إنكاره بالمبادئ العقلية .

= رأساً على عقب ... لكن الأمر لم يكن يتعلق بالدين قط فى هذه المسألة ؛ بل كانت المسألة فلسفية محضة مستقلة قطعاً عن الايمان والوحى . ما كان علينا إلا أن نفحص بلا مرارة ما إذا كان هناك تناقض بين قولنا : تستطيع المادة أن تفكر ، وقولنا : إن الله يستطيع أن يعطى التفكير للمادة . لكن اللاهوتيون يقولون فى الغالب إننا نهين الله لو لم نكن على رأيهم ... « رسالات فلسفية » ، رسالة ١٣ عن لوك — والقاموس الفلسفى لفولتير : باب الروح « *Lettres Philosophiques*, « sur M. Locke » . [المترجمان]

هذه هى عواقب ومحذورات تفكير لم يكن متسقا على الدوام — تفكير هيأ الفرص باختياره لمخالفيه ، ولكنه بالرغم من التفسيرات الخاطئة ، والانحراف والتيارات المضادة ، استمر مؤلفه يعمل فى اتجاه كان من السهل إدراكه . ظل لوك الرجل الذى يدعو الحكماء ألا يزرعوا إلا فى حديقتهم . حديقة للزراعة : هل يحتاج الانسان إلى أكثر من ذلك لكى يتوهم أنه فى الفردوس ؟ أو على الأقل ليروح عن نفسه ، وليجد بواعث على الحياة ؟ — ظل لوك على الأخص الرجل الذى لفت الأنظار إلى ألزم لعبة وفى نفس الوقت أمتعها : السيكولوجى . دراسة محركات العقل البشرى ؛ والملاحظة والفهم بدلا من الحكم والادانة : إنه لعمل ومتعة تناولها كوندياك Condillac ، فالايديولوجيون (علماء الأفكار والتصورات) ، ثم تاين Taine بالصقل والتهذيب ، حتى وصلتنا ولا زالت تشغلنا وتسحرنا .

الفصل الثانى

الاعتراف بالله وإنكار الوحى[1] — والدين الطبيعى

هاك أيضاً إحدى الصلات القوية العديدة ، التى تربط ما بين النهضة والزمن الذى ندرسه ربطاً مباشراً . لقد أتى هذا المذهب — الاعتراف بالله وإنكار الوحى — من إيطاليا ومن ثم هاجر إلى فرنسا منذ القرن السادس عشر حيث استقر ؛ ذلك لأنه اتخذ هناك عناوينه الصريحة القاطعة ، ولأن بيانات توالت بلا انقطاع محاولة إيضاح وتحديد كيانه الغامض . واستبان كثيراً فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، ثم لم يعد يعيش إلا فى الظلال .

ولكن فرعا انجليزيا انفصل عن الشجرة الأصلية ؛ كتب إدوارد هربرت، بارون دى شربرى ، فى باريس عام ١٦٢٤ ، إقرارا بمبادئ هذا المذهب ، لا يحمل مسحة الانكار والتجديف ، بل الاحترام والتقوى وشئ من التصوف « إنى أنبهك من البداية ، أيها القارئ العزيز إلى أنى لست أقدم لك حقائق الايمان ، بل حقائق الادراك . . . » لا ريب فى ذلك . بيد أن هناك حقائق دينية يتقبلها الادراك ، وتلك كانت طبيعة المبادئ المذهبية للبارون هربرت دى شربرى : هناك قدرة سامية — يجب أن نعبدها ؛ ومباشرة الفضيلة جزء من العبادة التى يؤديها الناس لله ؛ وبالتوبة نكفر عن الجرائم والطغيان ؛ وسيلقى الانسان بعد هذه الحياة العقاب أو الثواب .

ولما انتقل هذا المذهب إلى انجلترا ، ازداد وازدهر فى هذا الوسط الجديد . إذ وجد الأرض والسماء التى توافقه ، فهو يشعر كأنه فى بيته . واحتدمت المعارك ، علناً ، كأنما على قارعة الطريق ، بين محبذيه ومعارضيه . وذهب به تولاند إلى أقصى درجات المغالاة فى التعصب . وقام ضده بنتلى و بركلى

---

(١) Le Déisme .

وكلارك وبتلر ووار برتون يدافعون عن الدين المنزل : والخلاصة أنه ، « ما من بلد تحدد فيه الدين الطبيعى واتضح أكثر من انجلترا . . . (١) »

وبعد حين ، عندما يتقاذف الأفكار المد والجزر ، ستتقبل فرنسا الديزم (٢) من جديد ، إذ سيبدو لها موشّى بصفة أجنبية . سيقتبس فولتير منه فلسفته الدينية ، وسيصور جان جاك روسو ، فى شخص اللورد إدوار بومستون (٣) ، الرجل « الديست » المثالى ، رجلا ماديا وفاضلا فى نفس الوقت . ولكنا لم نصل بعد إلى زمن تمجيده ، بل مازلنا فى الوقت الذى يكافح فيه ليثبت أقدامه .

ويسير علينا أن ندرك صفاته السلبية : « لا ينبغى أن نغضب أنفسنا ؛ فما من شئ يخالف ذوق عصرنا أكثر من ذلك (٤) » . كان هناك دين يرغمنا ، دين كاثوليكى أو بروتستانتى أو يهودى ، والناس يوقفون هذا الارغام . لم يعد أى قسيس أو راهب أو حاخام يدعى الاستحواذ على السلطة . لم تعد هناك أسرار مقدسة ، ولا شعائر ، أو صيام ، أو تعذيب للنفس ؛ ولا إلزام بالحضور إلى الكنيسة ، أو المعبد . لم يعد للكتاب المقدس قيمة خارقة للطبيعة ؛ لم تعد هناك أسفار ، ولا وصايا . لقد دخل الديزم فى دائرة التسهيلات المتزايدة التى يقتضيها الزمن . بدل الناس من صورة الله ؛ فهم لا يريدون غضبه ، ولا انتقامه ، ولا حتى تدخله فى سير الأمور البشرية . فلم يعد الله يبدو مضايقا ، بل أصبح بعيداً متوارياً . إن معنى الخطيئة ، ولزوم الغفران ، والارتياب فى شأن السلام ، التى طالما عكرت صفو الضمائر على مر العصور ، لم تعد تقلق أبناء الناس .

ولكن ترى ما هى الصفات الايجابية للديزم ؟

***

إذا كان الديزم ينكر إله إسرائيل ، إله ابراهيم ويعقوب فهو على

---

(١) المكتبة الانجليزية ، ١٧١٧ القسم الأول ، ٣١٨ .

(٢) من أجل ضرورات الترجمة اضطررنا إلى استعمال كلمة « الديزم » محل « مذهب المعترفين بالله الناكرين للوحى »

(٣) Lord Bomston صديق سان برو Saint-Preux فى رواية جوليا Julie أو (هيلويز الجديدة) . القصة التى أكسبت روسو شهرة لم يكن لها مثيل . [المترجمان]

(٤) الأب بوفييه Buffier مبادئ الميتافيزيقا فى متناول الجميع ١٧٢٥ ص ٢٢

الأقل لا يزال يعتقد بوجود إله . وإذا كان ينكر الدين المنزل ، فهو على الأقل لم يرد أن تكون السماء فضاء خالياً ، ولم يرض أن يجعل الانسان وحده مقياساً للكون . حتى إنك لترى فى بعض الأحيان تعبيراً أقل جفاء أو نعتا أرق حاشية ، ينزلق بين الكلمات التى كان الكاثوليك والهوجونوت والانجليكان يؤاخذون بها أنصار الديزم : كرجال يشتركون فى العقيدة الأولى والأخيرة ، مع نفس الذين يناقضونهم : الايمان بالله . انظر كيف يتكلم ميشيل لى فاسور القسيس (بجمعية الأوراتوار) الذى أراد أن يدافع عن شرف الجمعية المتألمة من موقف ريشارد سيمون ، فنشر فى هذا الغرض فى عام ١٦٨٨ مؤلفا ضخما « عن الدين الحقيقى » : « بعض أنصار الديزم الذين هم أكثر حكمة وبصيرة من أعضاء الأكاديمية والأبيقوريين ، يعترفون بسلامة نية بأن هناك مبادئ دينية وأخلاقاً طبيعية ، على الرجل أن يتبعها . ولكنهم يضيفون أن هذه المبادئ كافية وأننا نسنا فى حاجة إلى الوحى ولا إلى الشريعة ليعرفنا بواجباتنا نحو الله ونحو إخواننا . وإننا لنستطيع أن نسير بفضل العقل ؛ وسيرضى الله دائماً ، إذا تبعنا المشاعر الدينية والأخلاقية التى بثها فى نفوسنا . . . (١) » هكذا يرى هذا المادح الكاثوليكى ، أن بعض أنصار الديزم (بعضهم ، لأن الفئة تتضمن أنواعاً جد مختلفة) — لا يمثلون إنكارا مطلقاً ، بقدر ما يمثلون انحرافا مؤسفاً .

ولنأخذ الآن رأى البروتستانت . لقد خصص العالم روبرت بويل ، الذى يحزنه سريان عدم التصديق ، ربع منزل يملكه فى لندن لمؤتمرات سنوية قد حملت اسمه : مؤتمرات دينية ، لا تقصد تأجيج النزاع بين المذاهب — بل تقوية المبادئ العامة للايمان : « تبيان البراهين التى تؤيد صحة الدين المسيحى ، والذود عنها ضد هجوم غير المؤمنين ، مثل الكفار ، وأنصار الديزم والوثنيين واليهود والمسلمين ، ودون مساس بأوجه الخلاف بين المذاهب المختلفة للمسيحية . » لقد لقيت « محاضرات بويل » Boyle Lectures نجاحا عظيما ؛ ودعى للاشتراك فيها أكبر رجال اللاهوت فى انجلترا وأفصح الخطباء ، وكان بينهم صامويل كلارك ، الراهب إذ ذاك فى أسقفية نورويتش ، والذى

---

(١) عن الدين الحقيقى ، الكتاب الأول ، الفصل السابع .

نال مرتين شرف الاشتراك فى هذه المحاضرات فى عام ١٧٠٤ وفى عام ١٧٠٥ فماذا يقول عن أنصار الديزم ؟ إنهم أربعة أنواع . أولئك الذين يتظاهرون بالايمان بوجود كائن أبدى ، لامتناه ، مستقل عاقل ، ولكنهم ينكرون العناية الالهية . — وأولئك الذين يؤمنون بالله وبالعناية الالهية ، ولكنهم يزعمون أن الله لا يبالى بأفعال الانسان ، طيبة كانت خلقياً أو سيئة ؛ فالأفعال لاتعد طيبة أو سيئة إلا بمقتضى قوانين بشرية وضعت بطريقة تعسفية — وأولئك الذين يؤمنون بالله وبالعناية الالهية ، وبالصفة الالزامية للأخلاق ، ولكنهم لا يعتقدون بخلود الروح وبالآخرة .

« وهناك نوع آخر من أنصار الديزم لديهم — من كل النواحى — أفكار سليمة وصحيحة عن الله وعن صفاته كافة . إنهم يفاخرون بالايمان بوجود كائن واحد ، أبدى ، لامتناه ، عاقل ، قادر على كل شئ ، كامل الحكمة ، خالق ، حفيظ ، هو السيد المطلق على الكون . . . »

إن أسلوب صامويل كلارك هنا شبيه بأسلوب سيشيل لى فاسور : إن بعض المعتدلين من أنصار الديزم مازالوا يحتفظون بعناصر دين إيجابى ؛ لكنهم لسوء الحظ ينكرون الوحى .

والآن ، إذا سألنا رجلا مدنياً ، لا دينياً — مثل درايدن Dryden اللبق الرقيق — فهل نخطئ فى ظننا أننا نجد فى أشعاره بعض الادانة ؟ ولكنها إدانة مخففة وكأنها مشفقة ، لأنه واع أنه لا يزال هناك شئ من التدين لدى عدد كبير من أنصار الديزم .

صادف درايدن أنصار الديزم أولئك ، فى تتبعه للفلاسفة الذين عبروا عن رأيهم فيما يخص الخير الأسمى Summum bonum ووصفهم كما يلى : « يعتقد نصير الديزم أنه يقف على أرض ثابتة ، أوريكا (١) ! لقد

(١) *Eurêka* ! : لفظ يونانى معناه « وجدتها ! » وكلمة أصبحت مشهورة ، وهى التى صاح بها أرشميدس لما كشف فجأة — وهو يستحم — قانون الأجسام الطافية (نظرية الماء المزاح). وكان أرشميدس يفكر فى ذلك الوقت فيما كلفه به الملك هيرون — ملك سيراكوز — أى فى تحليل سن من الذهب مشتبه فى خلطها بالفضة . فوجد فى أثناء استحمامه — أن أعضاء جسمه تفقد من وزنها حين يغطس فى الماء ، وترفع الماء أى تزيحه بكمية تتناسب مع الوزن ... كان هذا ضوءا قاده إلى كشف تلك القاعدة التى اشتهرت باسمه : وخرج من الحمام وطار فى الطريق يصيح : أوريكا : أوريكا ...! وجدتها...وجدتها ! [المترجمان]

انكشف السر الأعظم ! — إن الله مصدر الخير ، المصدر السامى الكامل — أما نحن فقد خلقنا للخدمة ، وسعادتنا فى خدمته — فاذا كان الأمر كذلك فلابد من أصول للعبادة — توزعها السماء على كل الناس بالقسطاس — ولو لم يكن الأمر كذلك لكان الله مغرضا ولكان البعض يحرم — من الوسائل التى من العدل أن يغيثها على الجميع — وقوام هذه العبادة الشاملة حمد الله ، والابتهال إليه — واقتراض الحسنة منه ، ثم ردها — وحينما تنزلق طبيعتنا الضعيفة فى الخطيئة ، — يكون التكفير فى التوبة — ومع ذلك ، فها نحنا نشهد أن العناية الالهية — توزع خيراتها ، فى تفاوت ، على الجنس البشرى — ومادامت الرذيلة تنتصر فى هذه الدنيا بينما تذوى الفضيلة — (عار ولاشك ، لا يستطيع العدل السامى أن يتحمله) — فان عقلنا يوجهنا إلى حالة مستقبلة حيث تستبين كل طرق الله الصالحة — استئناف سام ضد الحظ وضد القدر — سوف يعاقب الأشرار وسوف يجزى الأخيار — هكذا سيصعد المرء بفضل قدرته الخاصة إلى السماء ، — دون أن يكون ملزما قبل الله بالتزام آخر . . . (١) »

فأنصار الديزم الذين يصفهم درايدن على هذا المنوال عقليون ، لكنهم عقليون ، يشعرون بحنين إلى الدين .

فالديزم ، — كما يتبين لنا من كتب ذلك الوقت ، يضعف فكرة الله : ولكنه لا يمحوها . إنه يجعل الله موضع عقيدة غير معينة ، ولكنها إيجابية . وهذا يكفى لكى يحتفظ أشياعه بشعور من التفوق على إخوانهم الأشرار ، الكفار ؛ يكفى لكى يصلوا لله ويعبدوه ، لكيلا يشعروا أنهم منعزلون ، ضائعون ، يتامى ؛ ويكفى لكى يجد رعاة سافويا فيما بعد (٢) ، Les Vicaires Savoyards عندما

---

(١) الدين الدنيوى *Religio laici* ، ١٦٨٢ ، الفقرات من ٤٢ إلى ٦٣ .

(٢) إشارة إلى مؤلف جان جاك روسو « إقرار بالايمان لخورى من سكان سافويا » *Profession de Foi du Vicaire Savoyard* وهذا الاقرار من أبدع صفحات كتابه المشهور « إميل » — الجزء الرابع — يشرح فيه على لسان راهب أفكاره الفلسفية والدينية ويدرس المسألة الدينية من حيث صلتها بالأخلاق والسعادة ، ويبين لنا لزوم دين شخصى يقوم على أساس مشاهد الطبيعة وعلى أساس (الروح الالهية) التى يكشفها المرء لا بعقله بل بالحس والضمير . لذلك يعد « الاقرار » هجوما على المادية والكفر وليس هجوما على التقاليد المسيحية . ولقد كتبه روسو فى أسلوب قوى جميل حتى أصبح كتابه يعد من أروع صفحات الأدب الفرنسى ، وحتى أصبح «الاقرار بالايمان» إنجيلا =

تضئ الشمس جبالهم ، سر تلك المكاشفة القلبية ، ويؤمنوا من جديد بالدموع . إنه لعسير على المرء أن يكفر بالله فى قسوة ووحشية ، ويسير عليه جدا أن يؤمن بالله وينكر الوحى . إن العصيان التام ، الانكار المطلق يتطلب شخصيات غير عادية . يقول بايل «لافرق تقريباً بين الكفار وأشياع الديزم ، لو فحصنا الأمور بالدقة » . ولكن ما أكثر المعانى التى يمكننا أن نضمنها تلك الكلمة «تقريبا» ! ويقول بونالد : « إن نصير الديزم لم يتح له بعد الوقت الكافى ليكون كافراً » . أما نحن ، فيخيل إلينا ، بالعكس ، أنه رجل لم يشأ أن يكون كافراً .

لا عجب أن ينضج الديزم فى بلد اعتاد سكانه إيقاف تفكيرهم عند النقطة التى يريدونها ؛ حيث يحطمون فيه قوة المذهب إذا زاد عن حده وأصبح خطراً يهدد أخلاق الشعب . فلنصدق بشهادة معاصر : « يعد الانجليز دائما شعبا على استعداد طيب لقبول مشاعر الدين والفضيلة ؛ وبالرغم من أننا لا يسعنا إلا أن ندهش لما نراه من تقدم الكفر والرذيلة بيننا ، إلا أن أملى أن ذلك لن يكون إلا مرضا مؤقتا ، لأنه لا يتفق وعبقرية هذا الشعب(١)». إن عبقرية الشعب لا تتعجب ولا تتأثر من تحديد اختيارى ، أو من تناقض . السماح لدين دون أسرار ! إن الشعب يترك السر ويحتفظ بالدين . فالتفكير عند الانجليز ليس مسألة منطق فحسب ، بل مسألة إرادة أيضاً .

***

إن أشياع الديزم يحتفظون —بجانب ذلك— بفكرة الاذعان لقانون : قانون الطبيعة .

= لأشياعه . قال عنه فيكتور كوزان V. Cousin إنه أفخم مؤلف فى القرن الثامن عشر ، ويقول بيير تراهار P. Trahard فى مؤلفه : « أساتذة الحساسية الفرنسية » إنه سيأتى يوم يظهر فيه جان جاك روسو فى نظر الكنيسة كرسول بعثته السماء لينقذ من الدين ما يمكن إنقاذه . أما عن جملة « عند ما تضئ الشمس جبالهم » فان راهب سافويا يحدث زميله فوق جبل مرتفع بالقرب من جبال الألب ، فى يوم من أيام الصيف ، حينما تضئ الشمس قمم الجبال بأشعتها الساطعة... عن « الاقرار بالايمان » أنظر كتاب بيير مورريس ماسون : « دين جان جاك روسو » ، الجزء الثانى ، P. M. Masson, *La Religion de J. J. Rousseau*, Hachette, 3 Vol., 1916. [المترجمان]

(١) ريشارد بلاكمور : مقال عن موضوعات عديدة ، ١٧١٦ ، الجزء الأول .

كان الكاثوليك يعترفون بوجود هذا القانون : Est in homnibus lex quaedam naturalis participatio videlicet legis aeternae, secundum quam bonum et malum discernunt (١) : يوجد فى قلوب الناس شئ من القانون الطبيعى ، أى اشتراك فى القانون الأبدى ، الذى يفرقون به بين الخير والشر . . . وكان البروتستانت يعترفون أيضاً بهذا القانون بكل رضا ، لأنهم كانوا أقرب من الكاثوليك إلى المذهب العقلى ، ولأنهم كانوا أكثر استعداداً لأن يقطعوا جزءاً من الطريق بجانب الفلاسفة ، سواء لاقتناعهم ، أو للزوم التوفيق بين الدفاع عن الدين ومقتضيات الزمان . ولم يكن العون الذى يقدمه لهم الديزم هنا يستحق الاستخفاف : لأن فى ذلك العون مقداراً معادلا من الفوز على الكفار ، الذين ستأخذهم الدهشة والارتباك .

ولكن لا يكاد الناس ينظرون فى فكرة « الطبيعة » هذه عن كثب ، حتى تظهر آراء مختلفة لا يمكن إنكارها . وكانت على الأقل ثلاثة آراء .

أول شئ لم يستطع الكاثوليك ولا البروتستانت أن يقبلوه ، هو أن هذه الطبيعة الجريئة ، — بدلا من أن تقنع بكيانها وليدة السبعة الأيام ، وأن تدين بجمالها « للذى » استخرجها من الفناء — تستبدل بمكانها رويداً رويداً مكان الخالق ؛ تصبح وسيطاً له ، بل تعمل نيابة عنه ، بل تصبح النظام نفسه ، ذلك النظام السامى الذى يجب على الله أن يجاريه ؛ وأن تصبح « الكائن »: لقد رأينا فيما سبق بأى استنكار استقبل تفكير سبينوزا .

والشئ الثانى الذى لم يستطع المؤمنون أن يقبلوه ، هو أن تكون الطبيعة نوعاً من الغريزة الأخلاقية تستطيع أن تقوم وحدها مقام الدين بأكمله : فلا يكون الدين حينئذ إلا صلة بين القوانين الطبيعية والانسان ، ولا شئ غير ذلك .

والشئ الثالث : إذا اعتقدنا أن الطبيعة « أم رءوم » كما يقول لاهونتان؛ أو كما يقول شفتسبرى : Nature has no malice ؛ وأنه يكفى لعمل الخير

---

(١) القديس توما الأكوينى Saint Thomas d'Aquin فى كتابه المشهور : *Summa théologica* ويعد هذا القديس أشهر لاهوتى كاثوليكى وأكبر فلاسفة المسيحية فى القرن الثالث عشر . [المترجمان]

أن نتبع القوانين الطبيعية : فما الرأى فى الخطيئة الأصلية وما تلاها من فساد ؟ وماذا يعنى لزوم تخليصنا ؟ أفلا تكون الحياة إذن امتحاناً مؤقتاً نكافح فى أثنائه ضد المبادئ السيئة التى نحملها فى أنفسنا ، حتى نحظى بالجنة ؟

ما هى الطبيعة ؟ لقد عرض هذا السؤال بكل مافيه من شدة — كما عرضت إذ ذاك كل الأسئلة الأخرى — لأولئك الشجعان الذين لم يسمحوا — أياً كان الحزب الذى ينتمون إليه — بالالتجاء إلى الحيل أو اللف والدوران. لأنهم كانوا يتحرقون إلى الحقيقة ، وكانوا جميعاً يكافحون فى سبيل النور . كلما صعبت المسائل بدت لهم جديرة بالفحص . ما هى الطبيعة ؟ — سرعان ماتحققوا من أن هذه الكلمة قد اتخذت مختلف المعانى ، وبذا ، كانت تسبب « لبساً فظيعاً فى كلام الجهال وفى كلام العلماء على السواء » . إن الطبيعة حكيمة . إن الطبيعة لا تفعل شيئا عبثا . إن الطبيعة لا تتجاوز غايتها أبداً . إن الطبيعة تفعل الأصوب دائما . إن الطبيعة تسلك أقصر طريق . إن الطبيعة لا تبدو أبداً مسرفة فيما لا لزوم له ، ولا عاجزة فيما يلزم ويفيد . إن الطبيعة حافظة بذاتها . إن الطبيعة تعالج الشرور . إن الطبيعة تحرص دائما على حفظ الكون . إن الطبيعة تكره الفراغ . . . ما أكثر تلك الأمثال السائرة التى لا صلة بينها ولا مناسبة ! وما أكثر التفسيرات المتناقضة غير المتناسبة ، التى تتعلق كلها بموضوع واحد : خالق الطبيعة ، جوهر شئ ، نظام الأشياء ، شئ مثل نصف إله ، وغير ذلك كثير(١) .

لم يستطع الناس التوصل إلى اتفاق ، ليس أكثر من قبل ، ولا أكثر من بعد . ولكن هذا كان مثاراً لألمهم . إن روبرت بويل — الذى أشار إلى هذا الارتباك فى الألفاظ التى ذكرناها ، والذى رجا أن يحاول الناس إدخال بعض النظام على الطرق المختلفة لتفسير هذه الكلمات ، — لم يكن يبحث عن تعريف قطعى ، بقدر ما كان يعبر عن احتجاج ضمير مسيحى ، مخافة أن تنتشر بين الناس عادة ابدال الله بالطبيعة ، واحتج بيير بايل ضد الفكرة السخيفة — التى كان من حظها أن تنال نجاحاً غريباً فيما بعد — فكرة أن الناس طيبون بطبيعتهم . الطبيعة ؟ أولا لم يلاحظ أحد المشاعر التى تولدها فى قلوب الناس

(١) روبرت بويل ، عن الطبيعة ... لندن ١٦٨٦ ، Robert Boyle, *De ispa Natura, sive libera in receptam naturae notionem disquisitio*, Londini, 1686

بالضبط . « لا توجد كلمة نستعملها بطريقة مبهمة أكثر من كلمة « طبيعة » . إنها تدخل فى كل أنواع الكلام ، حينا فى معنى ، وحينا آخر فى معنى غيره ، ولم تتوقف أبداً عند فكرة معينة . ولكن مهما كان الأمر ، فانى أعتقد أن أولئك الذين يجيدون التفلسف سيعترفون بأنه ينبغى أولا — لكى نتأكد عما إذا كان هذا الشئ أو ذاك موحى به إلينا من الطبيعة — أن نعرف ما إذا كان الفتيان يعرفونه دون مساعدة أى تعليم . ولا أظن أننا لم نجر تجارب لمعرفة ماذا يحدث فى ذهن رجل لم يتعلم شيئاً بعد . لو أننا ربينا عدداً من الأطفال ، بمعرفة أشخاص يكتفون بتغذيتهم ، دون أن يعلموهم أى شئ ، لعرفنا ما تستطيع الطبيعة أن تفعل وحدها ، ولكنا لا نعرف إلا أشخاصاً تعهدناهم منذ المهد وجعلناهم يعتقدون بكل ما نريده » — ثم إننا لا نكاد نفتح عيوننا ونسرحها فيما حولنا ، حتى نضطر إلى الاعتراف بأن « طبيعة » و « طيبة » ليستا مترادفتين « إننا نرى فى الجنس البشرى أشياء بالغة السوء . مع أن أحداً لا يستطيع أن يشك فى أنها من فعل الطبيعة . . . أرى أن أنقى الآباء وأكثرهم ميلا إلى تربية أبنائهم طبقا للمبادئ الانجيلية ، لا يستطيعون أن ينجحوا فى كبت الميل إلى الانتقام ، وإلى النفاق ، وإلى المقامرة وإلى الفحشاء . . . (١) » أو كما يقول أيضاً : « أنبهكم إلى أن شرلوك يفترض أن الارتضاء العام للجنس البشرى هو صوت الطبيعة ، ولذا فهو صفة أكيدة لليقين . وإذا كان هذا يثبت شيئا فانما يثبت أنه إذا أمكن أن نجعل شيئا كصوت للطبيعة ، فهو أنه ينبغى أن ننتقم ، وأن نشبع شهواتنا الحيوانية تماما كما نرضى الجوع والعطش . . . (٢) » إذن ، لم يكن ليكفى أن يتكلم الناس عن الطبيعة ليظنوا أنهم قد وصلوا إلى مصدر الطيبة ، مصدر الفضيلة . . .

إلا أن أشياع الديزم كانوا يقنعون بالاعتقاد بأنهم يعملون مختارين فى اتجاه القوة الغامضة التى تضمن حفظ الكون ونظامه . ولما كانوا يعبدون إلها بلا أسرار ، فقد كان يخيل إليهم أنهم يذعنون لقانون إيجابى . بل كانوا

---

(١) بيير بايل : جواب على أسئلة قروى ، الجزء الثانى ، الفصل ١٠٥ .

(٢) بيير بايل جواب على أسئلة قروى : عما هو بالضبط شئ يصدر عن الطبيعة . وعما إذا كان يكفى لكى نحكم على حسن شئ ، — أن نعرف أن الطبيعة هى التى أرشدتنا إليه — الفصل ١١١ .

يعتقدون أحياناً أن الأديان المنزلة هى التى تسئ إلى الاله الحقيقى ، بابدال « فكرته » بصور ليست طبيعية بل مصطنعة ، ألفها رجال مغرضون ، خادعون، واستمرت بفضل الخرافة .

***

لقد تكون بين أشياع الديزم مذهب ، « مذهب جديد من العقول القوية أو قوم يفكرون فى حرية (١) ».

أنظر كيف يستدلون . إنهم يعرفون حرية التفكير بأنها : « إباحة استعمال العقل لمحاولة الوقوف على معنى قول أيا كان ، بوزن وضوح البراهين التى تدعمه أو تناقضه ، بمقدار درجة قوتها » . إلا أن محكمة الضمير هذه لا تحكم دائما بالادانة — بل تقبل أى شهادة ترى فيها كفاية من الصحة ، وتقبل أى واقع يتفق مع قواعد الوضوح والصراحة . إن المفكر الحر Le libre-penseur ينبذ ما يبدو له باطلا ويحتفظ بما يبدو له صحيحاً ، فهو بعيد عن أن يكون ارتيابيا ، بل يؤمن بقوة العقل الفعالة ، قوام الحقيقة والعدل .

هنا سر القوة النفسانية التى تحركه : إنه يثق ويرتاح للتفكير فى أنه يملك مبدأ من الصحة والبداهة ، بحيث يبدو له مستحيلا أن يضيف إليه شيئا آخر ، يوضح صحته فى ضوء أقوى : فانه أدرك السر الكبير الذى لن يدركه الضعاف . إنه يجد متعة فى تكرار الصيغة السحرية التى تقنعه باقتداره على الناس وعلى الأشياء : « إنى أفكر فى حرية » . ما من أحد فى الدنيا لم يخطئ ؛ أما هو فلم يعد يخطئ أبداً ؛ بل إنه — فى نهاية الفحص الدقيق الذى يمتحن به كل شئ يعرض لبصره ولذهنه ، — يكشف الحق والخير ، جزاء على جرأته التى هيأت له أن يتخلص من الخرافة . إن توكيداته العقلية تمده بالراحة

---

(١) أنطونى كولنز : مقال عن حرية التفكير لندن ١٧١٣ Anthony Collins, *A Discourse of Free-thinking, London, 1713* . — مقال عن التفكير الحر ، بمناسبة مذهب جديد من العقول القوية أو أناس يفكرون فى حرية — مترجم عن الانجليزية ، لندن ١٧١٤ . مقال عن حرية التفكير ، والاستدلال فى أهم المواد ، كتب بمناسبة اتساع مذهب جديد من العقول القوية أو أناس يفكرون فى حرية ، ترجم عن الانجليزية ، الطبعة الثانية ، لندن ١٧١٧ .

والسعادة التى كان المؤمنون يجدونها فيما سبق فى الايمان : إن العقل لايخيب ، ولا يخيب أملك : Neque decipitur ratio, neque decipit unquam فكروا فى حرية ، وستفوزون بالباقى ، فكروا فى حرية ، تأكلوا من فاكهة شجرة المعرفة . أما الجبناء والعبيد فسيبقون فى الظلام ، خارج الفردوس . « لا شئ يخالف الصواب أكثر من الظن أنه من الخطر أن نسمح للناس بحرية الفحص فى أسس الآراء المكتسبة ؛ ولا شئ يخالف الصواب أكثر من الشك فى حسن نوايا أولئك الذين يستعملون هذه الحرية . فالى أن يجد الناس دليلا أفضل من العقل ، من الواجب عليهم أن يتبعوا هذا النور إلى كل مكان يقودهم إليه » .

فالتفكير الحر سعادة فى ذاته ، وهو فضلا عن ذلك ، وسيلة لتنظيم الحياة فى اتجاه السعادة . إنه بفضل التفكير — ولا شئ غيره — يستطيع الناس أن يصلوا إلى معرفة الحياة البشرية تمام المعرفة ، وأن يقتنعوا بأن البؤس والشقاء عواقب الرذيلة ، بينما المتعة والحياة السعيدة دائما ثمرة الفضيلة . كان شيشرون مقتنعاً بذلك تماماً لما امتدح سعادة الرجل الذى يقوم بواجباته فى مرح ، والذى ينظم كل أفعاله باعتناء ، والذى لا يطيع القانون لأنه يخشاه ، بل لأنه يجده رائعا فى ذاته . فالفكر الحر يشعر بأنه لا يصغى إلا لارادته المستنيرة ، وللقوة المنطقية التى توجد فى عقله : إنه سيد نفسه كما هو سيد الكون .

كان أنطونى كولينز أول من أعلن هذه التعريفات عن التفكير الحر ؛ أولا فى المجادلات ، ثم بشئ من التفصيل فى مقاله المشهور عن التفكير الحر : *Discourse of free thinking* فى عام ١٧١٣ . حينئذ اكتسب لفظ The Free thinker ولفظ Le libre-penseur حقوق الرعوية بين الناس . كان هناك رجل مهذب gentleman شهد له الناس بذلك ، كان فيما سبق تلميذاً فى إيتون ، ثم درس فى كمبردج ، يمتلك — كما يقول لوك — منزلا فى الريف ، ومكتبة فى المدينة ، وأصدقاء فى كل مكان ، ولا مأخذ على حياته ، ينطق بالوقار Respectability الذى يعده مواطنوه الفضيلة الاجتماعية الأولى ؛ كان هناك رجل مهذب ، ليرث التركة المهوشة التى خلفها المتحررون وأشياع الديزم ، وليستخلص الرغبات والمبادئ التى تتضمنها ويوضحها . كان المفكرون الأحرار قد بدأوا فى ذلك الوقت يمثلون البدع والذوق الحسن ؛ يرثون لحال المؤمنين

من كل نوع — الذين لم يزل لهم العدد والنفوذ — ويسخرون منهم . يخاطب أنطونى كولينز صامويل كلارك بلهجة كلها احتقار : إن صامويل كلارك أورثوذوكسى ، وهذا يكفى للحكم عليه . « الشئ الذى أدهشنى من السيد كلارك ، — الشئ الذى لم أتوقعه منه والذى قرأته فى دفاعه — أنه يشتبه فى أنى قليل الايمان . إن كل شخص يستطيع أن يكون آراء من هذا القبيل ، ويثير شكوكا لا تشرف مثيريها ، ولا تلقى عند القارئ الشريف البصير إلا أسوأ القبول . لست أعتقد أنى ملزم بتبرئة نفسى من شك لا يقوم على أى دليل ، ولن أرد على هذا إلا باستشهادى بأورثوذوكسية السيد كلارك . وعلى ذلك أستأذنه ، مؤكداً للجمهور أنه لا يؤمن فى كثير ولا قليل ، وأنه أورثوذوكسى تماما ، وأنه سيبقى أورثوذكسياً طوال عمره » . هذا هو التطور الذى حدا بالناس إلى أن يجعلوا الأورثوذوكس ، لا قوما عاجزين عن التفكير بأنفسهم ، أو عقولا متأخرة فحسب ، بل أشخاصاً يعوقون التقدم ؛ وإلى أن يجعلوا المفكرين الأحرار ، لا قوما يفكرون تفكيراً صائبا فحسب ، بل عقولا تشارك مشاركة إيجابية فى خير المجتمع . لم يعد بمقدور أحد أن ينعى على أولئك الأخيرين أنهم متحررون متهورون ، أنانيون ، شهوانيون ، أو أنهم صعاليك لا حسبان لهم ، أفاقون ، ساقطون . إن مفكراً حراً مثل أنطونى كولينز مثال يحتذى لطهارة الأخلاق واللباقة التى ترفعه حتى فى نظر خصومه المتعددين .

إن كولينز يملأ مقاله عن « التفكير الحر » بالنفى والانكار ، ولكن أيضا بالجزم والتوكيد ، مهاجما أمامه مباشرة ، فى عناد ، دون اهتمام بتفاوت المعانى الذى لا يزعج ذهنه أبدا — لسبب واضح وهو أنه يجهله — ودون التعرض لحجج خصومه . إنه يبدل العلامات : فيضع علامات سلبية محل العلامات الايجابية ، أو العكس : فيقول مثلا إن الضرورة مبدأ من مبادئ الحرية ، وإن المادية تحقق انتصار الفكر . تداول الناس منذ عام ١٧١٤ ، لما كان لويس الرابع عشر لا يزال على قيد الحياة ، ترجمة فرنسية لكتابه ؛ وراجت ، ماداست قد نالت شرف الطبع مرة ثانية فى ١٧١٧ . يقول لنا المترجم إن لها أهمية عالمية . إلا أن البغض ادعى أن هذا الكتاب إنما كتب للانجليز ، وأنه يقتضى تفسيراً واسعاً لكى يفهمه الأجانب . ولذلك فلا يحتمل

انتشاره إذا ترجم إلى لغة أخرى . وفى هذا القول خطأ مبين ! — « فاليقين والتفكير والعقل لا وطن لها بل تخص الجميع » — « إن جوهر هذا المقال يهم كل الشعوب » . ولننوه هنا — وليس هذا موضع الغرابة الوحيد — بأن كولينز يغمر معبد « التفكير الحر » بالقديسين . يجب أن يقدس عبدة العقل العظماء الذين شاركوا على مر العصور ، فى تأسيس المذهب الجديد : — سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وأبيقور ، وفلوطرخس ، وفارون ، وكاتون ، وشيشرون ، وسنيكا ، وسليمان ، والأنبياء ، والمؤرخ يوسف ، وأريجين ، وفلكس ، ولورد باكون ، وهوبز ، بل حتى سنسيوس أسقف أفريقيا والأسقف تيلوتسون : الذى ولو أنه كان فى الحقيقة مادحا للمسيحية ، إلا أن مواعظه كانت ترمى إلى دعم « حرية التفكير » مصحوبة بالدين والفضيلة ، وهى ما تشارك مزاولتها فى سلام المجتمع ورفاهته . إلا أن كولينز كان فى مقدوره أن يضيف إلى أولئك المفكرين الأحرار الذين يشيد بفضائلهم ، عدة أبطال آخرين ، ولكنه يكتفى بذكر أسمائهم مخافة الاسهاب ، ويعد من بينهم إيرازم ، ومونتانى ، وسكاليجر ، وديكارت ، وغاسندى ، وجروسيوس ، وهربرت شربرى ، وملتون ، ومارشام ، وسبنسر ، وتندورت ، وتمبل ، ولوك . ويختم قائلا إنه من الصعب ، بل من المستحيل ، أن نذكر رجلا قد امتاز بعقله السليم وبفضيلته ، وخلف أثراً طيباً ، دون أن نعترف فى نفس الوقت أنه ترك لنا دلائل على « حرية تفكيره » . وبالمثل لا نستطيع أن نذكر عدواً « لحرية التفكير » ، مهما كانت منزلته إلا ويكون متعصباً أو مضطرب العقل ؛ أو يبدو جشعاً ، غير إنسانى ، كله رذائل شنيعة ؛ والخلاصة أنه لابد من أن يكون على استعداد دائم لأن يقدم على كل شئ بدعوى أنه يعمل فى سبيل الله وتمجيد الكنيسة ، وأن يخلف آثار جهله العميق ووحشيته ، وأخيراً أن يكون عبداً للقسس ، والنساء أو المال...

***

ولا يقتصر الأمر على القديسين المدنيين . بل إن تأسيس جمعية فكرية ، ووضع مراسيم وأصول تسمح بالتعرف على الأشياع وجمعهم ، والعودة إلى الاحتفال بالشعائر والطقوس ؛ هى الرغبة التى نشهدها فى نهاية التطور الذى تبعنا سيره من لحظة .

يقول سويفت : من يستطع أن يرى فى تولاند فيلسوفا ، إذا حرمناه من موضوعه الوحيد ، وهو كره المسيحية ؟ يصل الأمر بتولاند إلى تنظيم جمعية تجابه الكنيسة ، بدافع كرهه للمسيحية ، ويؤلف ترنيمة ، لا لتمجيد الألوهية ، بل لتمجيد الفلسفة ، ولكنها ترنيمة على كل حال : أيتها الفلسفة ، أنت دليل حياتنا ، تقوديننا إلى الفضيلة وتطردين عنا كل رذيلة ! ماذا كنا نصبح ، وماذا كان يصبح كل الناس فى أثناء حياتهم ، لولا عونك ؟ — أنت التى شدت المدائن ، وجمعت الناس المتفرقين ووحدتهم فى مجتمع . . . أنت التى اخترعت القوانين ، ولقنتينا قاعدة أخلاقنا وعلمتنا النظام . إليك نلتجئ . لأن يوماً واحداً نمضيه طبقا لمبادئك أفضل من الخلود . . . أى عون ننشده غير عونك ، أنت التى منحتنا الطمأنينة فى الحياة ، وأنقذتنا من رهبة الموت ؟ . . .

وهو يعلن كراهيته لكل نوع من أنواع العبادة التى يزاولها الناس : ومع ذلك ، يعرض دستوراً لجمعية جديدة ، سوف يكون الناس بفضلها أحسن وأعقل ، وسوف تهبهم المرح وترفعهم إلى أوج السرور . إن محبته للجنس البشرى تدفعه إلى تأسيس جمعية « سقراطية » ، يضع أخلاقها ومبادئها ، وفلسفتها . وسيعقد أعضاء هذه الجمعية اجتماعات سرية ؛ فيها أغان ، وولائم ونبيذ ، حيث يستعملون الصيغ الكنسية . رئيس ينطق بالأشعار ويرد عليه الأشياع . لندخل لحظة ، فى أثر جون تولاند ، إلى قاعة اجتماع أولئك الاخوان ، ولنصغ إليهم :

الرئيس :
— لكى نكون سعداء .

يجيب الحاضرون :
— نؤسس جمعية سقراطية .

الرئيس :
— فلتزدهر الفلسفة .

جواب :
— مع الفنون الحرة .

الرئيس :

— صه ! فليكرس هذا الاجتماع وكل ما فيه من تفكير ، وقول ، وعمل ، فى سبيل أهداف الحكماء : فى سبيل اليقين ، والحرية ، والصحة .

جواب :

— فليكن ذلك على مر الأزمان .

الرئيس :

— لنعلن أنفسنا أنداداً و إخواناً .

جواب :

— وأيضاً شركاء وأصدقاء . . .

حتى إن الرجل الذى كان أشد الناس تحاملا على الكنيسة ، يبنى معبده أمام أبصارنا . فلنذكر أن المحفل الماسونى الانجليزى الأكبر تأسس فى عام ١٧١٧ ، وأن أول محفل فرنسى تأسس فى عام ١٧٢٥ .

الفصل الثالث

القانون الطبيعى

كان هناك القانون الالهى .

وكان هذا القانون ، كما كان الدين — يبدو واضحاً وعظيما . كانت السياسة تستند على نفس الأقوال المقتبسة من الكتاب المقدس : وهل أمتن من ذلك ؟ « اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد . فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك(١) » . إن محبة الله تجبر الناس على محبة بعضهم بعضاً ، وهكذا يتولد المجتمع . وأول صور السلطان هى السلطة الأبوية ؛ والملكية التى تخلفها ، هى أشيع أنظمة الحكم ، وأقدمها ، وأكثرها تمشيا مع الطبيعة ، لأن الناس بحالتهم الأصلية رعية ؛ والسلطة الأبوية التى تعودهم الطاعة ، تعودهم فى نفس الوقت ألا يكون لهم إلا رئيس واحد . إن الحكم الملكى هو النظام الأصلح ؛ وأصلح الأنظمة الملكية هو الذى ينتقل بالتوريث والتتابع ، وعلى الأخص حين ينتقل من الذكر إلى الذكر ومن الأرشد إلى الأرشد (٢) .

هكذا يبنى أسقف « مو » — مربى ولى العهد — بيديه ، المظلة التى تؤوى شخص الملك . إنه شخص مقدس ، وما من أحد فى الدنيا يستطيع أن يمس سلطانه . ولا يعنى هذا أن يكون الملك فوق كل قاعدة : بل يلزمه القانون الالهى بواجبات أقسى وأثقل من واجبات أقل الناس شأنا . إن السلطة الملكية مقدسة ، ولكنها أبوية ؛ إنها مطلقة ، ولكنها تخضع للعقل ؛ إنها تطبق بمقتضى إرادة عامة ، لا بمقتضى أهواء ؛ فليرتعد من يملك هذه السلطة العظيمة ويسىء

---

(١) نص العهد القديم ، تثنية ، ٦ . [المترجمان]

(٢) بوسويه : سياسة مقتبسة من نفس كلام الكتاب المقدس ، ١٧٠٩ . *Politique tirée des propres paroles de l'Ecriture Sainte*

استعمالها ؛ لأنه سيلقى حسابا عسيراً يوم الحساب . أما والملك مسئول أمام الله ، فهو غير مسئول أمام رعاياه ؛ ليس ملزماً بأن يستشيرهم أو يتبع نصائحهم . والواقع أن نسبتنا إلى الملزمين بالطاعة قدرة فعالة تؤثر على الذين اصطفاهم الله للحكم ، مخالفة للمنطق ومخالفة للدين . وهذا المبدأ من القوة بحيث إن الشعوب لا تعفى من الخضوع حتى ولو جهر الملك بكفره ، أو أعمل الاضطهاد ؛ ليس لديهم سلاح ضد ظلم الأمراء إلا رفع العرائض ، دون عصيان أو تذمر ، بل بالدعاء لهدايتهم . إن الله يمسك من عليائه بزمام كل الممالك ؛ ويحكم الملوك رعاياهم وفق أهدافه الخفية ؛ وعلى الرعية أن تطيع دون تذمر ؛ أما الأحداث العابرة التى تفسد هذا الانسجام فى الظاهر ، فسيتضح لنا أنها تشارك فيه ، إذا نظرنا إليها لا بعيوننا بل ببصيرتنا ، وتمكنا من تفهمها فى تسلسلها .

والآن إذا نحن بحثنا عن صورة لا تشوه هذه العظمة الساطعة ، وتناسب هذه الجلالة التى تفوق البشرية ، لوجدنا فى الحال أمامنا صورة لويس الرابع عشر . إن هذه الصورة الملكية لا تفارق أذهاننا ، إنها تلاحقنا وراء الزمان ، وتلحق بنا ، إنها هنا ، إنها حية . وتتذكر حافظتنا تلك الكلمات المشهورة التى نطق بها الملك ، حتى يخيل إلينا أننا نسمعه يقولها كما حدث فى اليوم الذى سجل فيه بداية سلطته الشخصية : « الدولة أنا » l'État, c'est moi . ونحن نعرف أنه أراد أن يحقق كلمات هذا الشعار حرفياً : « ملك واحد ، إيمان واحد ، قانون واحد » ؛ وأنه حطم كل مقاومة ؛ ودافع ضد البابا نفسه — ذلك النوتى الذى يقود سفينة الكنيسة — عن حقوق الربان الذى يحافظ على سلامة السفينة ؛ وكان هو الربان . إنه بطل الملكية . إننا نبحث عنه فى فرسايل ، فى الردهات والأبهاء ، ونتبعه فى رواق المرايا ، بين رجال البلاط المنتبهين لأدق حركاته وسكناته ؛ وحينما نترك عند حلول الليل طرق المتنزهات التى خطتها إرادته السامية ، نتجه نحو القصر مؤملين أن نجد على إحدى النوافذ ، الظل الذى يذكرنا به لابرويير La Bruyère : « هو بنفسه — إذا أبحت لنفسى القول — وزير لنفسه ؛ لا وقت لديه للراحة ، ولا ساعات خاصة ، لأنه أبداً معنى بأمورنا . لقد تقدم الليل ، وتبدل الحراس فى قصره ، ولمعت الأنجم فى السماء ودارت فى فلكها ؛ كل الطبيعة تستريح ، بعد عناء النهار ، يلفها

الظلام ؛ ونحن أيضاً نستريح ، بينما الملك ، قد أوى إلى مخدعه ، ساهراً علينا وعلى كل الدولة . . . »

من جهة أخرى ، لدعم الفكرة القائلة بأن السلطة كلها ترجع إلى الأمير ، كان هناك نظريات سادرة فى الالحاد ، توضح أنه لا يمكن حكم الناس إلا بمعاملتهم كما لو كانوا وسائل . مثل نظرية « ماكيافيللى » التى لم ينسها الناس بعد ، وإن بعد بها العهد . ومثل نظرية هوبز Hobbes ، وهى أقرب . لقد استكملت تلك النظرية الشرسة الوقحة ، الموضوعة من عام ١٦٤٢ ، صورتها النهائية فى عام ١٦٥١ ، كما ظهرت فى « اللوياثان » Leviathan (١). وفرضت نفسها على كل مفكرى أوروبا الذين اضطروا إلى أن يحسبوا لها حسابا ، حتى ولو ليفندوها . ولكم رأى الناس فى أثناء تصفحهم لكتاب عن المذاهب اسم هوبز يظهر فيما بين السطور ! يا للدوى الذى أثارته أفكاره ! يا لها من أصداء رنانة أبداً !

كان هوبز يخاطب الناس قائلا : — إنكم مفطورون على الشر . ليس فى الدنيا أى مبدأ روحانى ؛ لا خير غير المتعة ، ولا شر غير الألم ؛ ولا هدف غير المنفعة ؛ ولا حرية إلا عدم وجود ما يعوق الشهوة . بما أن مبدأ حفظ الحياة قوامه حب الذات ، ولما كان كل فرد يدافع عن حقه فى الحياة ، فالحالة الطبيعية هى حالة القتال بين الناس ، أولئك الذئاب . « إن حالة الناس فى هذه الحرية الطبيعية هى حالة الحرب ؛ لأن الحرب إن هى إلا الزمن الذى يعلن فيه العزم على القتال أو المقاومة بالقوة ، بالقول أو بالفعل . أما الزمن الذى لا حرب فيه فهو ما يدعى السلم » . أسيتبع ذلك دمار الجنس البشرى ؟ . . . بالتأكيد ، لو لم نصطنع بعض الحيلة لمعالجة شرور الحالة الطبيعية ؛ لو لم نستبدل بالمساواة بين الناس نظاما قوامه عدم المساواة ، إذ هو النظام الوحيد الذى يستطيع أن يحميهم من أنفسهم . من هنا يلزم تأسيس هيئة سياسية ، تحت سلطة أمير يجب أن يكون — بحكم الضرورة — طاغية .

---

(١) اللوياثان : تأليف هوبز . وهو وحش مذكور فى كتاب أيوب ، العهد القديم ، الأصحاح ٤١ ، ١ . « أتصطاد لوياثان بشص أو تضغط لسانه بحبل » . [المترجمان]

لن تستطيع المواثيق والأيمان إقامة السلام بين الناس ، لأنهم يخرقونها على الدوام ؛ ولا شئ يستطيع أن يكبح غرائز الناس الوحشية ، غير القوة والخوف الذى توحيه القوة : وعلى ذلك يجب أن يتقلد الملك سيفا للقتال وصولجانا للعدل . يجب أن تتركز فى شخصه كل الحقوق المطلقة ؛ إن تحديد سلطته بأحد مخترعات الديموقراطية ، كالمجالس ، يعنى تشجيع الفوضى ، والسقوط ثوا من جديد فى وهدة الحالة الطبيعية . إن الملك ليس مسئولا أمام أحد ؛ إنه فوق كل قانون،إنه الكل فى الكل . لا ريب أننا نتزل له عن الحرية ، التى تعتز بها الشعوب إلى حد ما . وماذا فى ذلك ؟ . . . مادمنا لا نستطيع التوفيق بين الحرية والحياة ، فالأفضل أن نختار الحياة . إن فن الانسان لاعجاز ؛ إنه نجح فى صنع حيوانات اصطناعية ، تماثيل آلية تمشى وتجلس وتحرك رأسها ، وتفتح فمها وتقفل عينها . وبالمثل ، نجح الانسان فى تشكيل مجتمع اصطناعى : آلة مروعة ، آلة أوتوماتيكية سياسية تقوم لحسن الحظ ، مقام المجتمع الطبيعى ؛ هذه الآلة الأوتوماتيكية تسمى « لوياثان » . « إن المجتمع العالمى الذى أسميه لوياثان ، رجل اصطناعى ، وبالرغم من أنه أقوى وأضخم من الرجل الطبيعى فهو مكلف بحمايته وتأمينه . . . »

***

ستواجه هذه النظريات الواردة من مصادر شتى — ولكنها تلتقى عند مبدأ واحد هو مبدأ السلطة — نظريات أخرى ؛ ستبدأ معركة جديدة : إنها فى أول الأمر معركة المجردات ، ولكنها لا تخلو من جمال مؤثر . سنرى الأفكار تتولد ، متهيبة ، ضعيفة ، ترفض لأول وهلة ؛ ثم نراها يشتد ساعدها . ولاتظل إحداها حبيسة فى موطنها الأصلى بل تطير وتجتاز الحدود ، تلك طبيعتها ، تلك حياتها . تبدو كأنها تحيا وتتقوى عندما تصل إلى آفاق جديدة . يهاجمها البعض بلا هوادة والبعض يدافع عنها ويوضحها بلا انقطاع ؛ فتنال نصراً يتلوه غزو ؛ حتى يأتى يوم تحس فى نفسها قوة تحفزها إلى احتلال مكان المبادئ التى ألهمت الماضى ، وقيادة الناس نحو مستقبل يأملون أن يكون أفضل . يتولد القانون الطبيعى من فلسفة : الفلسفة التى تنكر ما يخرق الطبيعة ، وما هو إلهى ، وتستبدل بفعل الله وإرادته الذاتية نظام الطبيعة ، القائم بنفسه .

ويصدر هذا القانون أيضاً من اتجاه عقلى يتحقق فى دائرة النظام الاجتماعى : لكل كائن بشرى أهلية تلتحم بتعريفه التحاما وثيقا ، يصحبها واجب مباشرتها وفقا لماهيتها . وأخيراً يصدر هذا القانون عن شعور هو : أن السلطة التى تنظم العلاقة بين الرعايا والأمير ، تنظيما تحكميا — فى الداخل — والتى لاتؤدى إلا إلى الحروب فى الخارج ، يتعين رفضها ، و إبدالها بقانون جديد لعله يوصل إلى السعادة : قانون سياسى ينظم علاقات الشعوب ، مع فكرة توليها مصائرها بنفسها — قانون الشعوب . . .

القانون ، فلسفة الحياة ، قيمة اجتماعية ، قيمة عملية ؛ القانون ، جذور عميقة ، فروع كثيفة ، كيانه لا يتغير دون كبير عناء . هناك مؤلفات عظيمة مناضلة ، تقيم الأوتاد على طول الطريق . إن تتبعها ، مع ملاحظة تواريخها ، لمشاهدة لمجهود جبار ، يزداد وعيا ، فى كل مرحلة ، بالحقائق التى يسعى فى أثرها .

١٦٢٥ — هوج دى جروت (١) : قانون الحرب والسلام

Hughes de Groot, *De jure belli et pacis*

إن الذى أعطى الاشارة الأولى ، هولاندى لاجئ إلى باريس . ولما كان موفور الحس ، جم المعرفة ، وافر الذكاء ، ويقف فى طليعة المعارك السياسية وفى قلب المنازعات الدينية ، فقد كان يتألم من أجل القتال المستمر الذى يخرب أوربا : « كنت أرى فى العالم المسيحى إفراطا فى الحروب ، لو اقترفته الشعوب البربرية لكان مثاراً لخجلها ؛ فالناس يهرعون إلى السلاح لأتفه الأسباب أو دون أى سبب ، فاذا تناولوه لم يحترموا أى قانون ، لا القانون الالهى ولا القانون الانسانى ، كأنما الغضب الجنونى ينطلق فى طريق الجرائم بمقتضى قانون شامل . . . » جروسيوس هذا ، الذى جرت عليه أفكاره الاضطهاد ، هرب هروبا روائيا من السجن الذى سجنه فيه أعداؤه وانتقل إلى فرنسا : وقدم إلى لويس الثالث عشر فى ١٦٢٥ كتابه « قانون الحرب

---

(١) أسم جروسيوس ، Hugo De Groot, dit Grotius . [المترجمان]

والسلام » ، كتاب عظيم ، يجهله الشعب ، كما هو دائما شأن كل ما يؤثر فى مصيره أعمق التأثير . من يدرس هذا الجزء من القانون الذى ينظم علائق الشعوب أو رؤساء الدول بعضهم ببعض ؟ لا أحد ، كما يقرر جروسيوس . بل يقول الناس عادة إن الحرب لا تتفق مع أى نوع من القانون ؛ وإنه ، لأسباب تقتضيها مصالح الدولة — أسباب اخترعها « ماكيافيلى » — يجب أن نفهم وأن نبيح كل غدر وكل عنف . وهذا غير صحيح ، فهناك قانون يبقى فى أثناء الحرب بل يسود الحرب ، وهو القانون الطبيعى . والواقع أن الطبيعة قد نقشته فى قلب الانسان ، الذى تريده اجتماعياً أنيساً ؛ لا شئ يستطيع أن يفوق هذا القانون العرفى ، هذا القانون الحيوى . — « لكى تكون الحرب عادلة ، ينبغى أن تقوم على روح الانصاف التى اعتدنا أن نراعيها فى توزيع العدل . » — « فى أثناء الحرب ، تبطل القوانين المدنية : لكن لا تبطل القوانين العرفية التى تفرضها الطبيعة . »

وما القول فى القانون الالهى ؟ يحاول جرسيوس أن يحميه . يقول : إن ما قلنا يسرى ، ولو فرضنا أن لا وجود لله (وهو ما لا يمكن تصوره دون جريمة) ، أو أن أمور البشر ليست محل عنايته . أما ولا شك فى وجود الله والعناية الالهية ، فهناك منبعاً آخر للقانون ، غير الذى ينبثق من الطبيعة : القانون الذى يصدر عن إرادة الله . « إن القانون الطبيعى نفسه يمكن نسبته إلى الله ، مادام الله شاء أن يوجد فى أنفسنا مبادئ مثل تلك المبادئ . »

قانون الله ، قانون الطبيعة . . . هذه الصيغة المزدوجة ، لم يخترعها جروسيوس ، بل استعملت قبله بكثير ؛ إنها كانت معروفة فى القرون الوسطى. أين إذن صفتها الجديدة ؟ ولأى سبب ينقدها الناس ، ويحرمها الأساتذة والآباء ؟ ولماذا تثير كل هذه الضجة ؟

وجه الجدة هو فى التفرقة بين هذين اللفظين ، التى بدأت تتكشف ، وفى اختلافهما الذى يحاول أن يندمج ، وفى محاولة التوفيق بعد نفاد السهم ، التى تفرض فكرة انفصام . وجه الجدة على الأخص هو الشعور الذى سبق ذكره — والذى كان غامضاً إذ ذاك وأصبح قوياً الآن : الحرب ، والقسوة ، والبلبلة ، التى لا يكبحها قانون الله ، بل يبيحها ، بل يبررها بأغراض تسمو عن مداركنا ؛ فلعل قانوناً بشرياً يفلح فى تخفيف كل هذه الشرور التى تقاسيها ،

وفى القضاء عليها . هكذا تنتقل ، — مع الاعتذار عن تلك الجرأة — من نظام العناية الالهية إلى نظام الانسانية .

وترجم هذا الكتاب ، وفسر ، وشرح ، فى كليات القانون طوال القرن .

١٦٧٠ — سبينوزا : بحث لاهوتى سياسى ، *Tractatus theologico-politicus*

١٦٧٧ — الأخلاق ، *Éthique*

ظهرت فكرة أن الملوك دجالون ، يستغلون الدين فى دعم سلطانهم الجائر ؛ ثم فكرة أخرى عميقة ، وهى أن : كل كائن لابد أن يجاهد للابقاء على كيانه .

يكفى أن نذكر فى هذا الصدد نص « علم الأخلاق » القسم الثالث ، الفرض السادس :

« كل شئ ، مهما كان ، يجاهد ، طالما له كيان ، للابقاء على كيانه . »

الاثبات — الواقع ، أن الأشياء الخاصة حالات تعبر عن صفات الله بطريقة مؤكدة ومعينة . . . أى أشياء تعبر عن قدرة الله ، التى تدل على وجوده ، وبها يؤثر بطريقة مؤكدة ومعينة . ولا شئ يحمل فى ذاته دواعى دماره ، أى ما يقضى على وجوده . . . بل هو بالعكس يقاوم كل ما يستطيع أن يقضى على وجوده ، وبذا فهو يجاهد ، — طالما له كيان — للابقاء على كيانه . هذا هو ما كنا نريد تبيانه .

١٦٧٢ — صامويل بوفندورف : ثمانية كتب عن القانون الطبيعى وقانون الشعوب

Samuel Pufendorf, *De jure naturae et gentium libri octo.*

١٦٧٣ — كتابان عن واجبات الانسان والمواطن طبقاً للقانون الطبيعى

De officio hominis et civis juxta legem naturalem libri duo

واصل المهمة ألمانى — أستاذ فى السويد — ووسم أثره الخالد على النظريات التى كانت تتكون فى ذاك الوقت . كان صامويل بوفندورف أول أستاذ لقانون الطبيعة وقانون الشعوب ، فى جامعة هايدلبرج . فى ١٦٧٠ قبل دعوة

شارل الحادى عشر ملك السويد ، الذى عرض عليه كرسى الأستاذية فى جامعة لوند Lund . — « واجب الانسان والمواطن » : ما أعجب هذا العنوان فى ذلك الوقت ! يخيل إلينا أنه يسبق زمنه بمائة سنة على الأقل ؛ ولو أننا سئلنا إلى أى تاريخ يرجع ، لما ترددنا فى أن ننسبه إلى لغة الثورة الفرنسية . الواقع أن هذا المؤلف يتضمن أفكاراً ، ستنتقل من ذهن إلى ذهن ، حتى تسيطر فيما بعد على ضمائر القرن التالى : — قيام التجرد الفلسفى محل التاريخ ، مادام ممكنا « أن نقدر أن أول رجل إنما هبط من الفضاء ، حاملا نفس الميول التى يحملها الناس معهم اليوم عند ولادتهم » ؛ — والأخلاق الاجتماعية ، بتقدير أن الواجب « هو فعل بشرى يطابق تمام المطابقة القوانين التى تفرض علينا التزامه » ؛ — والميثاق السياسى . فالمجتمع المدنى — الذى خلف الحالة الطبيعية عن طريق الزواج ، والأسرة ، وتكوين كتلة سياسية — يقوم بالضرورة على اتفاقات : يتعاهد الأفراد على الاتحاد فى كتلة واحدة ، وعلى تنظيم أمنهم ومصالحهم المشتركة بارتضاء إجماعى ؛ ويتعهد أولئك الذين يملكون السلطة العليا بالسهر على الأمن الجماعى والمصلحة العامة ؛ وفى نفس الوقت يعد الآخرون بطاعة خالصة .

بدأ القانون الطبيعى يتكون ويزداد قوة ؛ لم يعد يطالب بمكانه فى وسط الحروب فحسب ، بل يحتله قبساً فى التكوين السياسى للدول ؛ ويسود الحياة الاجتماعية : « إن قانون الطبيعة هو القانون الذى يوافق دائما طبيعة الانسان الأنيسة والمنطقية ، حتى إنه لا يمكن أن يوجد فى الجنس البشرى ، دون مراعاة لمبادئه ، مجتمع شريف سالم . . . » لا ينكر بوفندورف القدرة الالهية ، ولكنه يبعدها إلى مجال آخر ؛ فهناك مجال العقل الصرف ومجال الوحى ؛ إذن هناك مجال القانون الطبيعى ومجال اللاهوت الأخلاق ؛ مجال الواجبات التى نلتزم بها لأننا ندرك على ضوء العقل الطبيعى المستقيم ، أنها لازمة لارادة المجتمع البشرى ؛ ومجال الواجبات التى نلتزم بها لأن الله فرضها علينا فى الكتاب المقدس . إلا أن البراهين التى يقدمها لاثبات أن هذه المجالات لا تتعارض بل يمكن أن تتوافق ، تبين لنا اختلافها العميق . إن اللاهوت يخص السماء ، والعقل الطبيعى يخص الأرض ؛ وبوفندورف لا ينظر إلا إلى الأرض : فالسماء تبدو له بعيدة جداً .

لقد أدرك قساوسة السويد خطر هذه القسمة ، أو بمعنى أصح خطر هذه المفاضلة الصريحة ؛ وقد حدثت حينئذ ضجة كبرى ضد عالم القانون الطبيعى ، حتى اضطر إلى الاستغاثة بالسلطات المدنية لكيلا يفقد وظيفته .

وحدث العكس ، فقد انتصر .

١٦٧٢ — ريشارد كامبرلاند : بحث فلسفى عن قانون الطبيعة

De legibus naturae disquisitio philosophica.

إنه يمثل مشاركة انجلترا فى هذا السبيل : لقد فند ريشار كامبرلاند ، أستاذ اللاهوت ، والأسقف فيما بعد ، مبادئ هوبز المرذولة . فعلى أى أساس يستند ؟ على القانون الطبيعى ، الذى هو على التدقيق نقيض العنف الذى أشاد به كاتب اللوياثان : « إن القوانين الطبيعية تتلخص فيما يلى : ينبغى أن نأخذ بالرفق كل كائن عاقل . . . »

إلا أن هذه الأرض العجوز ستقدم معونة فعالة أخرى ، حيث أصبحت المنازعات السياسية جزءاً متمماً للحياة الفكرية والأخلاقية والدينية للشعب ؛ وحيث كانت الملكية — التى لم ينقطع الحديث عنها طوال القرن السابع عشر ، والتى انقلبت ، ثم تأسست من جديد ، ثم انقلبت ثانية وتأسست من جديد ، وتغيرت فى جوهرها — قد أصبحت موضوعاً لمجادلات حامية محتدمة ، أراد أن يشترك فيها البورجوازيون والنبلاء ، وليس الشعراء والفلاسفة فحسب ، بل حتى الملوك أنفسهم . ولكن الأمور لم تأخذ مجراها بتلك السرعة ؛ فعلينا أن ننتظر قليلا .

١٦٨٥ — فسخ أمر نانت

La Révocation de l'Édit de Nantes

ارتفع من فرنسا المكونة خارج فرنسا ، من الملاجئ المؤسسة فى الأراضى الأجنبية ، صوت ينادى بالعصيان . والحق أن رجال الاصلاح ، حتى بعد الاضطهاد والنفى ، لم يعتقدوا أنهم فى حل من يمين الولاء للملك ؛ ولم يحلوا

مشكلة الضمير التى عرضت لهم حلا واحداً ، لأن بعضهم ظل يعتقد أنه بما أن القانون الالهى هو أساس الطاعة نحو الأمير ، فان أخطاء الأمير لا تمس سلطة الملك ، القائمة على الحق الالهى . ولكن البعض منهم رفعوا عقائرهم منادين بمقابلة العنف بالعنف . ألقى جوريو ، من ١٦٨٦ إلى ١٦٨٩ بمقالاته «رسائل رعوية إلى المؤمنين الذين يئنون فى أسر بابل (١) » معلناً فيها الحق فى العصيان : « إن استعمال سيف الأمراء لا يمتد إلى الضمائر » : لقد استعمل لويس الرابع عشر سيفه لاجبار الضمائر ، وبذا خرج على القانون : إن العصيان أصبح مشروعا من الآن .

ولقد انصدم بوسويه عندما سمع بذلك التوكيد ، وكرس لتفنيده مؤلفه « الانذار الخامس إلى البروتستانت عن رسائل القسيس جوريو ضد تاريخ التبدلات (١٦٩٠) : أساس المالك الذى يقلبه هذا القسيس (٢) . » — «ينشر السيد جوريو مبادئ مثيرة للفتنة ترمى إلى قلب كل الممالك وإلى تجريد كل السلطات التى وضعها الله . » يا للعجب ! لقد عانت الكنيسة المسيحية القديمة الاضطهاد دون عصيان ، وأنكر البروتستانت أنفسهم زمنا طويلا أنهم تمردوا فى فرنسا وفى انجلترا على السلطة الملكية ؛ والآن يعلن جوريو أن لنا الحق فى أن نحارب ملوكنا وأوطاننا ! إن روح العصيان هذه لشئ ممقوت . « أريد أن أثبت لكم أن إصلاحكم هذا ليس إصلاحا مسيحياً ، لأنكم غير مخلصين لأمرائكم وأوطانكم . »

لكن الأمر ، لم يكن أمر مسألة بين البروتستانت والكاثوليك : بل تدخل القانون الطبيعى فى اقتتالها . استند جوريو على جروسيوس . وكان بوسويه يعرفه تمام المعرفة ؛ كان جروسيوس عالماً بحق وحسن النية ؛ ولكنه كان سوسنيانيا ؛ كان ذهنا خطراً ، يخلط بين ما هو إلهى وما هو بشرى . ماذا كان يريد أن يقول بقانونه الطبيعى ؟ إن تخيله أن الشعب كان سيداً مطلقاً بطبيعته ، معناه بلا شك أن الانسانية — فى حالتها البدائية — كانت

---

(١) *Lettres pastorales aux fidèles qui gémissent sous la captivité de Babylone*

(٢) *Cinquième avertissement aux protestants sur les lettres du ministre Jurieu contre l'Histoire des Variations, 1690.: Le fondement des empires renversé par ce ministre.*

لديها فكرة سلطة مطلقة تخصها ، وأن لها الحق فى تفويض هذه السلطة إلى من تشاء . يا له من خطأ ! إن جروسيوس ، وجوريو من بعده ، يخطئان فى المبادئ ولا يدركان معانى الألفاظ . فلنحذر الخطأ : بما أن حالة الانسانية البدائية كانت فوضى شنيعة وحشية ، ولم تكن أول الجماعات البشرية تشكل — كما يسمح لنا المنطق أن نفترض — شعباً بل قوماً رحلا ، فكيف نتصور إذ ذاك سلطة مطلقة تكون شكلا من أشكال الحكومة ؟ « من المستبعد أن يكون الشعب — فى حالته هذه — سيداً مطلقاً ، بل لا يوجد شعب أصلا فى هذه الحالة . من المحتمل أنه كانت هناك أسر سيئة الادارة وغير سوطدة ؛ كما أنه من المحتمل أنه كانت هناك قبيلة ، كتلة من الناس ، خليط مهوش ؛ ولكن لا يمكن أن يكون هناك شعب ، لأن الشعب يفترض شيئاً يتضمن بعض السلوك المنظم وبعض القانون الموضوع ؛ وهو مالا يحدث إلا لدى الذين بدأوا يخرجون من هذه الحالة التعسة ، أى الفوضى » . لا يستطيع بوسويه أن يتصور أن الفوضى تفوض سلطة .

ومع ذلك فان لويس الرابع عشر ، السلطان المطلق ، قد حكم عليه بصفته هذه ؛ كان يمثل فى نظر الناس النظام القديم . ما أشد رد الفعل الذى حدث فى داخل مملكته — فرنسا — ضد مبدأ سلطة لا يصادق عليها إلا الله ! فالمعارضون ، الذين قاموا بالبحث فى المواثيق والقوانين القديمة ، عن مصادر الملكية ، مبينين اغتصابها ؛ والبارلمانيون العنيدون ، الذين دافعوا عن حقوق وامتيازات هيئاتهم الجليلة ؛ والنبلاء الذين يطالبون بامتيازات أمراء الاقطاع فى فرنسا Pairs ؛ بدأ الجميع ، بورجوازيين كانوا أو نبلاء ، منقادين كانوا أو عاصيين ، مجانين أو عقلاء ، يعبرون عن عدم رضاهم ، وعن غضبهم وعدم اصطبارهم على هذا النير ، فى الكتب التى يطبعونها فى هولاندا ، وفى المخطوطات التى يتداولونها خفية تحت أرديتهم .

وفى الخارج ، افتضح لويس الرابع عشر ، كما قلنا من قبل . ولكن ، من وجهة نظر القانون ، بقى اعتراض بوسويه قائما . إذا لم يكن البشر فى حالة الطبيعة إلا قبيلة رحالة ، فكيف تولد قانون من تلك البلبلة البدائية ؟

١٦٨٨ — الثورة الانجليزية

طرد جاك الثانى ، الملك بنعمته تعالى ، من العرش ؛ وتربع وليم أورانج مكانه ؛ يقول المؤرخون إن الملك الجديد ، الذى توج فى وستمنستر فى ١١ أبريل ١٦٨٩ ، « يحكم بمقتضى حق لا يفترق فى شئ عن الحق الذى ينتخب كل مالك بمقتضاه نائب مقاطعته » ؛ وإنه قبل رقابة المجلسين ، وبذا حقق انتصار الحكم البرلمانى ، وفقاً لميثاق شالى أبرم بين الأمير ورعاياه .

أين كانت الأفكار التى نادى بها الأساتذة من فوق منابرهم ، والتى استوعبها الطلاب ، وأعلنتها الصحف العليمة ، والتى نوقشت ، ونوقضت ، ثم عادت واندعمت من جديد ، وغذت منذ جروسيوس جيلين متتابعين ؟ أين كانت الأفكار التى شرحها أساتذة الكنيسة ، ووضحها الفقهاء الرسميون ، والتى كانت تدعمها قوة التقاليد ؟ هل تقف تلك الأفكار جامدة ، بينما التجربة نفسها ، بينما الحدث الذى يقلق كل أوربا ، يهيئ لها فرصة عظيمة للاعلان عن نفسها ، والمعارضة فى هذه المرحلة الحاسمة من قتالها ؟ لم يفت الناس الالتجاء إلى النظريات للدفاع عن حكم أسرة « ستيوارت » المزعزع الأركان . لقد بعثوا من زوايا النسيان كتباً تثبت شرعية الحكم المطلق ، من بينها كتب مجادل قوى ، قد دافع فى منتصف القرن عن القضية الملكية بشجاعة . كان روبرت فلمر Robert Filmer يعظ بالخضوع والطاعة ، قائلا إن حكومة مختلطة لا تؤدى إلا إلى البلبلة ، وإن الرعايا ليس لهم أى حق فى العصيان ؛ وإن هوبز كان مخطئا فى مبادئه ، ولكنه كان مصيبا فى استنباطه ؛ وإن سلطة الملوك المطلقة ضرورة لا معدى عنها . لقد أصبح فلمر بدعة العصر ، بل طبع فى عام ١٦٨٠ — ثم مرة أخرى فى خلال السنوات التالية — المؤلف الخطير لذلك « الرجل العالم » ، تحت عنوان *Patriarcha* ، موضحاً وضوح النهار أن سلطة الملوك امتداد للسلطة الأبوية : لا يجرؤ ابن ، يخاف الله والناس ، أن يعق أباه .

لقد كذبت الوقائع مزاعم أشياع جاك الثانى . وسيتقدم رجل ليخلع على الوقائع قيمة المبدأ الشامل .

١٦٨٩ — جون لوك : بحثان عن الحكومة
نكشف فى الأول مبادىء السير روبرت فلمر وخلفائه الباطلة وأسسهم المغلوطة ونفندها . والثانى مقال عن مصادر الحكومة المدنية ومداها ومقاصدها الحقيقية (١)

فى نفس السفينة التى أقلعت من هولاندا ، حاملة وليم أورانج نحو انجلترا ونحو الثورة ، كان يرحل جون لوك ، فيلسوف الأزمان الحديثة . وهو الذى سيستجيب فى بحثه لدعوة الملكيين إلى القتال .

وهو فى الواقع يردد الأفكار التى سبق أن سمعناها مراراً : ولكنه سيدفع بها إلى أبعد مما وصلت إليه من قبل ؛ ويلزمها بأن تثبت ، بسلسلة من الاستدلال المنطقى ، شرعية الحق فى العصيان . إنه يبدأ من حالة الطبيعة ، كما سبق أن فعل بوفندورف ، وكما يفعل الجميع الآن ؛ فان هذه بدعة ، بل هوس . إن حالة الطبيعة ليست حالة عنف ووحشية كما يدعى هوبز ، إلا أنها أيضاً لاتبلغ مرتبة الكمال . فالرجل يؤسس حالة اجتماعية ، علاجا للشرور التى تتضمنها حالة الطبيعة ، ولكن دون أن يتبع نظام رب العائلة ، كما يزعم فلمر ؛ بل يؤسسها بناء على ميثاق ، كما أثبت بوفندورف . فليعرف القراء ما يلى : «لا يوجد مجتمع سياسى إلا حيث يتجرد كل عضو من سلطته الطبيعية ويضعها بين يدى المجتمع ، لكى يستعملها فى الأمور كافة ، على ألا يحول ذلك دون الالتجاء إلى القوانين التى يضعها المجتمع . » إن الحكم المطلق ، الذى ينكر هذا الحق فى الاستئناف ، لا يتفق مطلقاً مع المجتمع المدنى ؛ وإن الحق الالهى ، الذى يشيد به الأساتذة الكاثوليك ، لا يثبت بتاتاً سلطة رجل واحد على بقية الناس . يجب أن تكون السلطة تحت الرقابة وأن تكون مجزأة ، كما هى الحال فى بريطانيا العظمى : تشريعية وتنفيذية . إذا لم تعمل السلطة التنفيذية طبقاً

---

(١) *Deux traités de gouvernement.* Dans le premier, les faux principes et les fondations erronées de Sir Robert Filmer et de ceux qui le suivent sont découverts et rejetés. Le second est un essai concernant l'Origine, l'Extension et la Fin véritable du gouvernement civil.

للأغراض التى أسست من أجلها ، وإذا اعتدت على حرية الشعب ، يجب سحبها من يد الذى يملكها . بل أكثر من ذلك : إذا رأى الرعايا أن الطاغية يعد الوسائل لاستعبادهم فليسبقوه! فليمنعوه ، بوساطة عصيان علنى ، من تحقيق نواياه السيئة !

كان لوك يرتب الأمور بفضل مزايا عبقريته العملية ؛ فكان يضيف إلى فكرة الطبيعة ، فكرة المدنية . وكان يبدو كأنما يرد مقدما على بوسويه . حقاً ، إن حالة الطبيعة تتضمن بعض المحذورات . وحقاً أيضاً ، إن التاريخ ، الذى لا يتصف بالغنى والدقة فيما يخص نشوء المجتمع ، كما نريده أن يكون ، لا يقدم لنا نماذج أكيدة ، بل فروضاً شبه حقيقية ؛ وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتصور على وجه التقريب كيف اضطر الناس إلى تفويض سلطتهم . هكذا : كان الناس بطبيعتهم أحراراً ؛ وكانوا فى تأييد هذه الحرية ، قضاة ومحتكمين ؛ أما للدفاع عنها فعند من كانوا يستأنفون ؟ كان الناس بطبيعتهم سواسية ، ولكن ، لحماية هذه المساواة ضد الاغتصاب ، إلى من كانوا يختصمون ؟ لو أنهم لم يفوضوا سلطتهم إلى حكومة قادرة على الاحتفاظ بالحرية والمساواة الأوليـة ، لوقعوا فى حالة حرب مستمرة . لم يكونوا قبيلة رحالة ، ولكن ، لولا احترازهم لأصبحوا كذلك . إن القانون الطبيعى يوحى بالقانون السياسى ، الذى يصون المزايا الطبيعية من أخطار الحياة العملية .

كلما ظهرت صعوبة حاول لوك الحكيم أن يحلها بالحكمة . مثلا : يصعب على الناس أن يضحوا بفكرة السلطة الأبوية ، الوسيطة بين الله والناس ، وأول صورة للسلطة الملكية . ويتدخل لوك ليشرح أن الأطفال لا يولدون « فى » حالة مساواة تامة ، وإن كانوا يولدون « لأجل » هذه الحالة ؛ وأن الوالدين (الأب وكذا الأم) يملكان نوعاً من الولاية عليهم : الواقع أن الوالدين ملزمان باعداد الأطفال للحرية ، طالما لم يبلغ الأطفال رشدهم . إذن فالسلطة الأبوية موجودة ، ولكنها غير مطلقة ، بل هى واجب أكثر منها سلطة ؛ لا يمكنها أن تسن قوانين ؛ وإذا أمكن افتراض أنه كان هناك ، فى بداية الأزمان ، نظام رب العائلة ، فان هذا النظام لم يكن يقوم إلا على رضا ضمنى من الأطفال .

لننظر الآن إلى الملكية : تلك المسألة الخطيرة . إنها لا تتفق مع المساواة الطبيعية كل الاتفاق . نرى ، بموجب العقل وبموجب الوحى معاً ، أن الله أهدى الأرض مشاعاً لكل الجنس البشرى : كيف نفسر إذن أن الأفراد استطاعوا أن يتملكوا شرعاً جزءاً من هذا الرزق الجماعى ؟ — يتدخل لوك هنا أيضاً ويجيب : إن الملكية الفردية تفسر بالعمل . — « ومع أن الأرض وما عليها من خيرات مشاع بين الناس ، إلا أن كل فرد يتمتع بحق خاص على شخصه الذاتى ، الذى ليس لأحد آخر أن يدعى عليه أى حق كان . يمكننا أن نقول إن جهد جسمه وإنتاج يديه ، ماله الخاص . كل شئ يستخرجه من الطبيعة ، بفضل مجهوده وصناعته ، يملكه هو وحده . . . » إن الماء الذى ينبثق من تلك العين ملك لكل المارة ، ولكن إذا ملأت منها جرتى ، من يجرؤ أن يقول إن ماء جرتى ليس ملكى ؟

كان لوك ينقض ويفسر ، وسيطاً بين الفقهاء والجمهور ؛ وسيطاً أيضاً بين الأزمان القديمة والأزمان الحديثة : محتفظاً من العقائد القديمة بما يكاد يكفى لئلا يدهش الضمائر كل الدهشة ؛ ومكثراً من الجديد : لا حق إلهياً ؛ ولا حق فى الفتح : « يبعد أن تكون الفتوحات مصدراً أو أساساً للدول ، قدر ما يبعد أن يكون تدمير منزل السبب الحقيقى فى إنشاء منزل آخر فى نفس المكان . » فبفضل لوك ، كان شعاع الدستور الانجليزى ينعكس على الحق الطبيعى ؛ وفى نفس الوقت ، كان الحق الطبيعى يؤسس الدستور الانجليزى ؛ دستور عادل يتضمن برلمانا وملكا اختارته الارادة الأهلية . كان لوك يدخل الحق الطبيعى فى سياسة زمنه ، وبلده وجنسه ، وفضلا عن ذلك ، كان يسجل صلته بدين الاصلاح . فالحق الالهى ، بمجرد زعمه أنه أساس الحكم المطلق ، لم يكن يبدو فوق الطبيعة ، بل مخالفاً للطبيعة ؛ ولم يكن تبرير الحكم المطلق ببعض إرادة إلهية مزعومة ، إلا اختراعا حديثاً للاهوتيين الكاثوليك : « لم نسمع مطلقاً عن شئ مثل ذلك ، قبلما يكشف لنا علم اللاهوت فى هذا القرن الأخير عن ذلك السر الكبير . . . »

١٦٩٩ — مغامرات تليماك (١)

Les Aventures de Télémaque

الحق أن فينلون لا ينكر مبدأ الحق الالهى . ولكن ، بين المشاعر والأفكار العديدة التى أعلنها هذا الكتاب المشهور ، المنتشر بين الصغار والكبار بآلاف وآلاف النسخ ، — يوجد على الأقل شعور واحد وفكرة واحدة يجب أن نعيها .

شعور واحد : البغض ، كراهية لويس الرابع عشر . والموضوع ليس مجرد اعتراض نظرى ، بل هو فى الحق شعور ينفجر ، أو انفعال متهم عام . — « هل بحثت بين الناس عن أبعدهم عن التغرض ، وأصلحهم لمصارحتك ؟ هل عنيت بأن تسمع كلام أناس لا تدفعهم أى رغبة إلى إرضائك ، وأبعدهم عن الوصولية فى سلوكهم ، وأجدرهم بلومك على شهواتك ، وعلى مشاعرك المخالفة للعدل ؟ ولما وجدت منافقين ، هل صرفتهم عنك ؟ هل كنت تحترس منهم ؟ كلا ، كلا ، إنك لم تفعل البتة ما يفعله الذين يحبون الحق ، والجديرون بمعرفته . . . بينما كان العدو الخارجى يهدد مملكتك التى لا تزال مزعزعة ، لم تفكر فى داخل عاصمتك الجديدة إلا فى إنشاء المبانى الفاخرة . . . إنك بددت مالك ؛ إنك لم تفكر لا فى إنماء شعبك ولا فى فلاحة الأراضى الخصبة... بل إن كبراً باطلا دفع بك إلى حافة الهاوية . ومن أجل رغبتك الملحة فى التظاهر بالعظمة ، حطمت عظمتك الحقيقية . . . »

وفكرة واحدة : قيمة الشعب . « إن الآلهة لم تجعل منه ملكا لشخصه بل لكى يكون رجل الشعب : إنه مدين للشعب بكل وقته ، بكل عنايته ، بكل عاطفته ؛ وإنه ليس جديراً بالملكية إلا بقدر ما يتناسى نفسه ، ويضحى بنفسه للصالح العام . . . » — « اعلم جيداً أنك لست ملكاً إلا بقدر ما لك

---

(١) كتاب ألفه فنيلون Fénelon لتعليم تلميذه دوق بورجونى de Bourgogne الذى أصبح ولى العهد فى ١٧١١ . يصف فيه مغامرات تليماك لما رحل ، وهو ما يزال طفلا ، باحثاً عن أبيه أو ليس ، أحد أبطال حرب طروادة . إنما المقصد من هذا التأليف — كما اعترف به فنيلون — شرح الحقائق الضرورية لادارة الدولة ، وعيوب السلطة المطلقة ؛ والتعليمات الأساسية التى تناسب أميراً تؤهله ولادته للحكم . [المترجمان]

من شعب لتحكمه ... » بل أكثر من ذلك ! الشعب المكبوت لا رغبة له إلا فى الانتقام من الملوك ، وحينئذ تأزف ساعة العصيان : « إن حكمه المطلق يخلق عدداً من العبيد بقدر ما له من رعايا . يتملقه الناس، ويتظاهرون بعبادته ، ويرتعدون لأقل نظراته ؛ ولكن انتظر العصيان: لن تستمر هذه العظمة الوحشية، إذا تجاوزت الحد ؛ فلا سند فى قلوب الشعب ؛ لقد أجهدت كل كيان الدولة وأثارته ؛ إنها دفعت كل أعضاء الدولة إلى التلهف على تغيير الحال . فمن أول ضربة ينقلب ذلك الصنم المعبود ، ويتحطم ، ويقع مرذولا تحت أقدام الناس (١) » .

إن مملكة فرنسا تعانى تعاسة شديدة . من لا يعرف الفقرة التى وصف بها (لابروبير) حالة الفلاح بأسلوب روائى مؤلم (٢)؟ ولعل ملاحظات لوك أقوى منها تأثيراً ، وإن كان لا ينظر مثله إلى التأثير : إنه يلاحظ أن الفلاحين يعيشون فى جحور ، ويملكون مايكاد يستر أجسادهم وما يقيم أودهم ، وبالرغم من تعاستهم لا تعدم الحكومة وسائل لافقارهم بالضرائب . ولذلك تتوقف الزراعة وتبور الأرض : وحيث إن العمل لا يؤدى بالفلاح إلا إلى ظلم أفدح ، فانه يكف عن العمل . ومن جهة أخرى ، تموت المصانع ، أو تحاول الفرار إلى خارج الحدود ، علها تجد الحرية التى افتقدتها فى فرنسا . إن الرسوم الجمركية ، التى تفرض عند كل مخرج ، وعند كل مرور ، تجعل التجارة تبور . إن إخفاق سياسة « كولبير » الذى بدأ الناس يحسونه فى أثناء حياته ، أصبح جليا بعد مماته بمجاعة عام ١٦٩٤ الهائلة ، والافلاس : أى تعاسة !

وجمعت نخبة ممتازة هذه الشكاوى وحاولت أن تعالج هذه الشرور . إن الضائقة الفرنسية الكبرى ، ستسجل فى كتب يبدو أنها قد أسلتها ضرورة

---

(١) تيليماك ، الكتاب العاشر

(٢) هاك هذه الفقرة : « نشاهد بعض حيوانات متوحشة منتشرة بالريف ، سوداء ، مغبرة ، قد لفحتها الشمس ، ملحقة بالأرض التى تنبش فيها بعناد لا يغلب ، تلوح كأنها تنطق بلغة مفصلة ؛ وحينما تقف على أقدامها تظهر لها وجوه إنسانية ؛ الواقع أنهم أناس يأوون بالليل إلى جحورهم حيث يتغذون بالخبز الأسود ، بالماء وبالجذور . إنهم يكفون الناس الأحرار مشقة البذر والحرث للمعيشة ، وبذا يستحقون ألا يحرموا من الحب الذى بذروه » . (كتاب الشخصيات ، الفصل ١٠ ، الانسان) . La Bruyère, *Caractères*, chap. X . [المترجمان]

الحياة . كتب بواجلبرت(١) فى أسلوب ثقيل خال من الفن ولكن فى إصرار وصرامة لها تأثيرها ، مبيناً أن فرنسا ، التى كانت أغنى ممالك العالم فيما سبق ، قد فقدت خمسة أو ستة ملايين من دخلها السنوى ، وأن هذا العجز يزداد كل يوم . ولقد بلغ من سوء توزيع الضرائب أن تثقل على الفقير وتحمى الغنى، وبهذه السياسة المالية أصبح الفقراء بائسين : إن المملكة بأجمعها تسير إلى حتفها . ويقول فوبان Vauban بدوره ، إن الحالة ملحة إلى تغيير توزيع الضريبة ؛ إن ضريبة عشرية عادلة Dime تكلف أقل ، وتغل محصولا أوفر . وإذا كان بواجلبرت وفوبان — مع بعدهما عن أن يكونا متمردين — يحاولان إصلاح مالية الدولة وإيجاد موارد يبحث الملك عنها عبثاً ، فقد كانا يبدوان دخيلين مغتصبين يتعديان على ملك محفوظ من قديم (٢) : فحكم على مشروع ضريبة العشر بالحريق (٣) .

ولكن كم يبدو فنيلون أكثر جسارة ! فالأسئلة التى يوجهها تليماك إلى إيدومنيه (ملك كريت) ، يوجهها فنيلون ، بنفس النغمة الأليمة ، إلى تلميذه الدوق بورجونى ، إذا قدر له أن يتولى الحكم يوما : أتعرف كيف تتأسس الدولة ؟ هل درست الواجبات الأخلاقية التى يجب أن يتحلى بها الملوك ؟ هل بحثت عن الوسائل التى تروح عن الشعوب ؟ كيف تجنب رعاياك الشرور التى تنجم عن الحكم المطلق ، وسوء الادارة ، والحروب ؟ وحينما يصبح الدوق بورجونى فى عام ١٧١١ ولى عهد فرنسا ، يقدم له فنيلون قائمة إصلاحات ، تهيئة لتنصيبه على العرش .

فلنسجل فى قائمة فنيلون ما قاله ، دفاعاً عن حقوق الانسانية ، بهذه الألفاظ : « كما أن كل أسرة عضو فى شعب معين ، كذلك كل شعب عضو فى الجنس البشرى ، الذى هو المجتمع الشامل . وكل فرد مدين للجنس البشرى ، الذى هو الوطن الأعظم ، أكثر مما هو مدين لوطنه الخاص ، الذى ولد فيه ؛ لذلك فان المساس بالعدالة بين شعب وشعب آخر لأشد وبالا على الجنس البشرى،

---

(١) دى بواجلبرت : تقرير عن مالية فرنسا ، ١٦٩٥ . Pierre Le Pesant De Boisguilbert, *Le détail de la France*, 1695.

(٢) لأن الضريبة العشرية كانت مخصصة للكنيسة . [المترجمان]

(٣) مشروع قانون عن ضريبة العشر الملكية ... (١٧٠٧) .

من المساس بالعدالة بين أسرة وأسرة . إن إنكار المشاعر الانسانية ليس إعوازاً للتربية ووقوعاً فى البربرية فحسب ، بل هو أيضاً أشد صور عمى الأشقياء والمتوحشين : إنه خروج على الآدمية ، لا يليق إلا بأكلة لحوم البشر (١) . »

١٧٠٥ — توماسيوس :
أساس القانون الطبيعى وقانون الشعوب على ضوء الادراك السليم

Fundamenta juris naturae et gentium ex sensu communi deducta

١٧٠٨ — جرافينا : مصادر القانون المدنى ونشأته وتقدمه ، وقانون الشعوب واثنا عشر جدولا مفسراً .

Origines juris civilis, quibus ortus et progressus juris civilis, jus naturale gentium et XII Tabulae explicantur.

يدخل جان فنسانزو جرافينا Gravina فكرة القانون الطبيعى فى التاريخ . ويحاول ، من جهة أخرى ، أن يفسر تناقضاً يتولد دائماً من فكرة الطبيعة ، التى لا يمكن إدراكها . فالقانون الطبيعى هو العقل ، الذى يوجب الفضيلة . والفضيلة تطرد الرذيلة : ومع ذلك نرى الرذيلة أيضاً فى الطبيعة ... هاك الجواب : « علاوة على القانون الشامل الذى يشترك فيه الروح والجسد معاً ، بتقديرهما مرتبطين ، فان للانسان قانوناً يخصه ، وهو كثيراً ما يخالف القانون الآخر . أسمى الأول : القانون الجماعى ، والثانى ، قانون الروح فقط . فالقانون الجماعى يشمل عموم الكائنات ، فهو إذن يشمل الانسان أيضاً . أما قانون الروح ، القانون المنطقى ، الذى يقوم على التفكير ، فيخص الانسان فقط . » وبموجب هذا القانون الأخير ، يخضع الرجل لعقله الذاتى ، وبالتالى يخضع للفضائل ، كما لو كانت قضاة عينهم ذلك القانون لكى يحكموا على أفعالنا ويسهروا على حواسنا . . .

سيطرد مجهود العقول وانتشار هذه الأفكار إلى أيامنا . ولكن نهاية القرن

---

(١) حديث الأموات ، سوقراط والسيبياد (١٧١٨) *Dialogue des Morts, Socrate et Alcibiade*, 1718.

السابع عشر تسجل مرحلة حاسمة ، إذ تلاقت فيها نظرية القانون الطبيعى ، ونظرية قانون الشعوب ، والوقائع . لقد أتم لوك — وإن كان أقل قوة وتعمقاً بكثير من جروسيوس وبوفندورف ، ومع أنه كان يعوزه المنطق أحياناً — تحويل « القانون » من دينى إلى مدنى . الحرية ، والمساواة : كان يمكن أن يتخذ كتابه هاتين الكلمتين شعاراً . « لحالة الطبيعة قانون طبيعى ينظمها ، وعلى كل فرد أن يخضع له وأن يطيعه . فالعقل ، الذى هو هذا القانون ، يعلم كل الناس — إن تفضلوا باستشارته — أنهم ساداسوا جميعاً سواسية ومستقلين ، فلا يحق لأحد أن يؤذى الآخر ، فى حياته ، أو صحته ، أو حريته أو ماله . . . (١) »

(١) عن الحكومة المدنية ... ترجمة دافيد مازيل ، أمستردام ١٦٩١ ، الفصل الأول ، *Du Gouvernement civil...*, traduit par David Mazel, Amsterdam

تيليماك فى رحلته إلى الجحيم يشاهد مصير الملوك السيئين

(من كتاب مغامرات تيليماك . باريس ١٧٨٣) .

الفصل الرابع

الأخلاق الاجتماعية

إذا كان هناك رجل ، قد أكد بصورة أوضح وأقوى من كل أسلافه ، استقلال الأخلاق عن الدين ، فهو بلا شك بيير بايل . لقد رجع إلى هذا الموضوع مرات ومرات ، فى أبواب قاموسه ، وفى إجاباته على أسئلة قروى . ولكنه كتب فى أفكاره عن المذنب ، مستنداً ، مبدياً كل قواته ، وواضحاً متحمساً ، دستور الانفصال .

لقد بدأ فى هوادة ؛ ليس الكفار أسوأ من الوثنيين ، سواء من حيث العقل أو من حيث القلب . ثم تطرق ، بعد أن مهد الطريق ، موعزاً بأن الكفار ليسوا أسوء من المسيحيين . إذا قلنا لرجل يأتى من عالم آخر إن هناك أناساً ذوى حكمة وعقل سليم ، يخافون الله ، ويعتقدون أن السماء ستثيبهم على حسناتهم وأن الجحيم ستعاقبهم على سيئاتهم : لتوقّع ذلك الرجل أن يرى أولئك الناس يأتون بالحسنات ، ويحترمون الغير ، ويتسامحون حيال الاهانة والشر ، ويسعون لاكتساب سعادة أبدية . وا أسفاه . . . ! فان الأمور لا تجرى على هذا المنوال فى الواقع . يجب أن نعترف بأمر واقع يوضحه لنا مشهد الحياة فى نور ساطع وهو أن : الفرق كبير بين مانعتقد به وما نفعله ، وأن المبادىء ليس لها تأثير على الأفعال ؛ وأننا نبدو أتقياء فى كلامنا ، كفرة فى سيرتنا ؛ ونزعم أننا نعبد الله بينما نحن لا نطيع إلا المنفعة ولا نتبع إلا الشهوة ؛ « إنى أرى الخير وأصدق به ، ولكنى أرتكب الشر (١) » : هذا مثل قديم . انظر

---

(١) قاله الشاعر أوفيد Ovide باللاتينية على لسان الأميرة ميديه : Video meliora proboque, deteriora sequor . وهاك تعليق بايل : « إن الشاعر الذى جعل « ميديه » تقول : « أرى الخير وأصدق به ، ولكنى أفعل الشر ـ قد بين فى وضوح ودقة الفرق بين ضوء الضمير والرأى الخاص الذى يدفعنا إلى العمل ... »
(أفكار عن المذنب ، الفصل الثانى) . [المترجمان]

كيف يعيش المسيحيون . يقرأون كتب العبادة : ولكنها تنسى فور ما تقرأ . إن جنود الجيوش الكاثوليكية جداً فاسقون ونهابون ، ينهبون البلاد بلا تمييز بين الأعداء والأصدقاء ، ويحرقون عند اللزوم — ودون تبصر — الكنائس والمعابد والأديرة . أما الحروب الصليبية ، فيا لها من مشروع يستحق الاعجاب من الوجهة النظرية ! ولكن ما أكثر ما حدث فى إبانها وما تبعها من استغلال وخيانة وإجرام ! إن النساء متدينات بوجه خاص : ومع ذلك فكم نرى من يتقابلن منهن مع عشاقهن بمجرد مغادرتهن غرفة الاعتراف ! هناك عاهرات ، ولصوص ، ومجرمون يعبدون العذراء عبادة خاصة ؛ وتسرى روايات — يزعم الناس أنها دينية — تقول إن العذراء تحمى الفتيات والأشرار ، لأنهم يحرقون شمعة أو يسجدون أمام تمثالها . إن أشياع جانسنيوس يعارضون كثرة تناول القربان ، لأنهم يعرفون جيداً أنه يمكننا الاقتراب كل يوم من مائدة القربان المقدس ، ونبقى مع ذلك أشرارا . والخلاصة ، إن إيمان المرء لا يؤثر على سيرته وعلى أخلاقه . بل إن التدين يشجع أحياناً بعض الشهوات السيئة ، مثل الغضب على الذين يعتقدون بعقيدة أخرى ، أو التمسك بالمراسيم الظاهرية ، والنفاق .

حينئذ يعرض بايل للقارئ التجربة معكوسة : كما أنه لا يوجد شئ عادى أكثر من المسيحيين الأورثوذوكس الذين يسلكون سلوكاً سيئاً ، كذلك نجد عدداً كبيراً من المتحررين الذين سلكوا سلوكا صالحاً على أتم وجه . وفضلا عن القدماء ، مثل دياجوراس ، ثيودور ، نيكانور ، أفيمير ، هيبون ، وبلين ، الذى كان دائما جديراً بصفته كرومانى عظيم ؛ وأبيقور الذى عاش حياة نموذجية ، — فلننظر إلى المحدثين : كان يشتبه فى أن « دى لوبيتال » ، رئيس الديوان ، عديم الدين ، مع أنه لم يوجد أوقر من شخصيته وأنبل من حياته ؛ وأولئك الذين عاشروا سبينوزا يذكرون أنه كان أنيساً ، وحليما ، وشريفاً ، ومستقيما فى أخلاقه ؛ ومع ذلك كان سبينوزا كافراً .

جمهورية من الكفار — لماذا لا نستطيع أن نتصورها ؟ إن مجتمعا بلا دين يكون أشبه بمجتمع وثنى ؛ ولا يفترق المسيحيون ، فى حياتهم العملية ، عن الوثنيين . . . لعل الكفار يدركون الشرف والخزى ، والثواب والعقاب ، بقدر ما يدركها المسيحيون : إن فكرة فناء الروح لا تحول دون تمنى المرء أن

يكسب اسمه الخلود . وإذا كان لزاما أن يكون لمذهب شهداء ، لكى يستحق الاحترام ، فان مذهب الكفر لا يعوزه الشهداء : « فانينى » الذى مات فى سبيله ؛ وأحدث من ذلك ، المدعو « محمد أفندى » الذى أعدم فى « الآستانة » لأنه أنكر علناً وجود الله . « كان يستطيع أن ينقذ حياته لو اعترف بخطئه ووعد بألا يكرره فى المستقبل ؛ ولكنه آثر الاصرار على تجديفه ، قائلا إنه ، وإن كان لا ينتظر أى جزاء ، إلا أن محبته للحقيقة تجبره على أن يموت شهيداً فى سبيلها ، دعما لها . »

وبعد ما يتم بايل التجربة والتجربة العكسية على هذه الصورة ، يصل إلى نهاية إثباته : إن الدين والأخلاق ليسا ملتحمين ، بل مستقلين ؛ نستطيع أن نكون متدينين دون أن نكون أخلاقيين ؛ ونستطيع أن نكون أخلاقيين دون أن نكون متدينين . فالكافر الذى يعيش حياة فاضلة ليس مخلوقا خارقا للطبيعة : « لأن يعيش كافر حياة فاضلة ، ليس أغرب من أن يرتكب مسيحى كل أنواع الجريمة . » فالكفار الذين يعيشون فى تركيا ، والكفار الذين يعيشون فى الصين ، أطهر أخلاقا من المسيحيين الذين يعيشون فى روما أو فى باريس . . .

ألا نستطيع أن نقول إن أخلاقا مستقلة أفضل من أخلاق دينية ؟ مادامت الأولى لا تنتظر ثوابا أو عقابا ولا تعتمد إلا على نفسها ؛ بينما الأخرى ، لخوفها من الجحيم وأملها فى السماء ، لابد من أن تكون متغرضة ؟ — « تولاند » ، يغالى كعادته ، قائلا : « إن أفظع كفر لأقل شؤما على الدولة والمجتمع البشرى من تلك الخرافة الوحشية والبربرية ، التى تملأ الدول المزدهرة بالنزاع والانقسام ، وتفسد أكبر الممالك وكثيراً ما تقلبها ؛ والتى تفصل الأولاد عن آبائهم ، والأصدقاء عن أصدقائهم ، وتحطم وحدة الأشياء التى يجب أن تكون متحدة بأقوى الصلات . . . (١) »

***

ولكن بعدما هدمنا أخلاق النظام الالهى ، كيف نستطيع أن نعيد إنشاء الأخلاق فى النظام البشرى ؟ هنا كان يبتدئ الارتباك .

---

(١) *Adeisidaemon* ، ١٧٠٩ .

هل يجب أن نرجع إلى الوراء ، ونلتجئ إلى القدماء ، ونتخذ الوثنيين أدلاء ؟ ومن بين الوثنيين ؟ أبيقور ؟ أبيكتيتوس ؟ أولئك الفلاسفة متناقضون. هل كان يجب اختيار فيلسوف حاول أن يقدم إلى العالم أفضل ما فى الأخلاق القديمة ، دون أن يؤلف مذهباً مبتكراً ؟ هل كان يجب أن نستشير الخطيب الرومانى ، مؤلف كتاب « الواجبات » ، أى شيشرون ، عن قاعدة حياة مدنية لا دينية ؟ لقد كان العالم « إيرازم » Erasme معجباً بعظمة حياته وطهارة قلبه ؛ والواقع أنه « لم يخلف لنا العالم الوثنى أحداً آخر يوضح تمام التوضيح هذه المبادئ الكريمة ويوصى بها بمثل تلك القوة — هذه المبادئ التى تستمد منها الطبيعة البشرية مجدها وكمالها : حب الفضيلة وحب الحرية ، وحب الوطن ، وحب الجنس البشرى بأسره (١) ».

ولكن كان من السهل على علماء الأخلاق المسيحيين أن يردوا على ذلك . فقد قضت المسيحية على هذه النظريات التى يريد الناس ابتعاثها ، منذ ألف وسبعمائة عام . بروتوس ، وكاتون ، وأمثالهم ، يا لهم من نماذج تعسة ! إنهم أولعوا بتلك الكلمات الضخمة ، وبتلك الحركات الكبيرة ، بتلك المواقف المسرحية ؛ فانتهت حياتهم بالافلاس . وأنقذت الروح المسيحية الانسانية من هذا الافلاس .

حينئذ ظهرت أخلاق حديثة ، أخلاق الناس الشرفاء ؛ أخلاق سيكولوجية . لم تأنف هذه الأخلاق أن تقتبس من المصادر القديمة ، مفضلة إياها من كل الوجوه على المسيحية ؛ ولكنها كانت تستعين على الأخص بالعقل . عقل قد تمدن وتهذب ، عقل لم يعد خشنا وجامداً كما كان فيما سبق ، ولم يحتفظ بشئ من صلابته القديمة . « يجب أن ننسى وقتا كان يكفى فيه أن يكون المرء جاداً رزيناً لكى يبدو فاضلا ، مادام الأدب ، والرقة ، والتفنن فى الشهوات ، قد أصبحت جزءاً من الفضيلة الحالية . فمن جهة كراهية الأفعال الخبيثة ، يجب أن تبقى ما بقيت الدنيا ؛ لكن فلنتقبل أن يدعو المترفهون « متعة » ما دعاه الغلاظ الجفاة « رذيلة » ، ولا نكوّن فضيلتنا من المشاعر القديمة التى

---

(١) لقد أخذنا هذه التعبيرات من كتاب «تاريخ شيشرون» بقلم ميدلتون C. Middleton لندن ١٧٤١ ترجمة أبيه بريفو فى عام ١٧٤٣ .

غرستها فطرة وحشية فى الناس البدائيين (١)» لم تحرم هذه الأخلاق اللذة ، ولا الشهوة ، بشرط أن تكون معتدلة ، مسيطرا عليها . . . ما فى ذلك من شك . ولكنها لم تستطع مع ذلك أن تدعى أن لها قوة ملزمة ، أو قيمة شاملة . كان يجب أن يدعى المرء سانت أفريموند ، أو وليم تمبل ، أو لورد هاليفاكس ، لكى يدركها ويباشرها . أخلاق أرستوقراطيين ، أخلاق قوم مترفين ، قوم سئموا الدنيا ؛ إنها مركب هش رقيق ، اتفاق ، ليست سيطرة ، بل تكييفا .

***

قلّ من كان يستطيع أن يتقبل تلك الأخلاق الميتافيزيقية السامية الجدية ، التى عرضها سبينوزا ، كما رأينا ، — تباين هائل ، يقابله تعارض دائم فى الأخلاق البشرية ، فيا للتهوش ! ما أصعب إيجاد مبدأ مشترك ، قاعدة ينبغى أن تفرض على كل الناس ، فى كل زمان وفى كل مكان ! هنا ، نرى الناس يعرضون أولادهم للوحوش ، أو يتركونهم يموتون جوعاً : كيف نتكلم بعد ذلك ، عن الصفة الشاملة للواجب الأبوى ! وهناك ، نرى الأولاد لا يترددون فى قتل آبائهم عندما تدركهم الشيخوخة . « فى إحدى بلاد آسيا ، لا يكاد الناس يقطعون الأمل فى صحة مريض ، حتى يضعوه فى حفرة تحت الأرض ، حيث يتركونه معرضاً للريح ، وأخطار الجو ، دون شفقة وبلا معونة ، حتى يموت . وإنها لعادة لدى بعض سكان « جورجيا » الذين يدينون بالمسيحية ، Mingréliens ، أن يدفنوا أبناءهم أحياء ، دون تأنيب ضمير . وفى جهات أخرى ، يأكل الآباء أبناءهم . اعتاد أهل « كاريبيا » أن يخصوا أولادهم بقصد تسمينهم وأكلهم . يذكر « جارسيلازو دى لافيجا » أن بعض سكان « بيرو » اعتادوا أن يحتفظوا بالسبايا ، لاستخدامهن كسرارى ، ويتوفرون على تغذية أولادهم منهن حتى يبلغوا الثالثة عشرة ، ثم يأكلونهم ، ويأكلون أمهاتهم بالمثل بمجرد بلوغهن سن اليأس . » إن ما نراه فى الدنيا يثبت لنا ، فى الواقع ، أن الأخلاق تختلف اختلافاً جوهرياً . ينبغى أن نسلم بذلك : « إن من يعنى

---

(١) سانت أفريموند . بقلم جوستاف لانسون ، تبدل الأفكار الأخلاقية (مجلة الشهر ، ١٩١٠) .

بمطالعة تاريخ الجنس البشرى ، وفحص سيرة شعوب الأرض بغير تغرض ، ليستطيع أن يقتنع بأنه يتعذر إيجاد أى مبدأ أخلاقى ، أو تصور أى قاعدة للفضيلة — باستثناء الواجبات التى يقتضيها بالضرورة حفظ المجتمع البشرى ، (والتى كثيراً ما تخرقها الشعوب فى صلات بعضها ببعض) — من غير أن تستخف بها ، وتناقضها ، تقاليد شعوب بأكملها فى بعض أرجاء الدنيا . . . (١)»

باستثناء الواجبات التى يقتضيها بالضرورة حفظ المجتمع البشرى . . . هنا ظهر احتمال أخلاق جديدة ؛ أخلاق لا شئ فطريا فيها ، حتى ولا فكرة الخير ، حتى ولا فكرة الشر ؛ بل أخلاق شرعية ولازمة ، مادامت مكلفة بالابقاء على وجودنا الجماعى . حيث إننا خلقنا لحياة اجتماعية ، فمن المعقول أن نخاف من الفوضى التى قد تهلك جنسنا ؛ ولذلك ، نتخذ الحيطة التى تنقذنا من اضطراب مشئوم ؛ فنجمع النصائح التى توعز بها إلينا غريزة حفظ النوع ، فى قانون . لأن هناك « أنانية » شرعية ، تبقى على حياة الجماعة ؛ إن الأنانية لا تصبح مرذولة إلا إذا هددت كيان الجماعة ، وبالتالى هددت الفرد نفسه ، بحسبانه جزءاً لا ينفصل من الكل . إن الخير الأخلاق ليس شيئاً تقديريا ، مثل الشهرة ، والمال ، والمتعة ، بل إنه ضرورة حيوية : إن معناه حفظ الانسانية .

يقول أشياع ذلك المذهب إن له فضلا يستحق الاعجاب ، فضلا ليس له مثيل : فان هذه الأخلاق يمكن إثباتها . لأنها لا تستند على فرض أولى مسلم به ، بل على حقائق واقعية يمكن تحليلها تمام التحليل . لننظر فى أنفسنا : نحن نسمى « خيراً » ما يمكن أن يولد ، أو يزيد ، أو يحفظ إحساسنا المتعة ؛ ويعكس ذلك نسمى « شراً » ما يمكن أن يولد أو يزيد أو يديم إحساسنا الألم . لذلك ، فان منفعتنا الحقة ، أو بمعنى أصح كياننا بالذات ، يدفعنا إلى طاعة القوانين المدنية ، مادمنا ، بمراعاتها ، نحفظ ما لنا ، وحريتنا ، وبذا نعمل على دوام وضمان متعتنا الذاتية . أما إذا لم نراعها ، فاننا نعرض أنفسنا للعقاب، ثم الاضطراب ، ثم الفوضى التى لا حياة فيها بلا ألم ، أو لا حياة فيها على الاطلاق . والأمر لا يختلف فيما يخص الأمور التقديرية : فالفضيلة تكسبنا تقدير

---

(١) بيان مأخوذ من « مقال عن الأدراك الانسانى » الكتاب الأول ، الفصل الثانى .

ومحبة الأشخاص الذين نعيش بينهم ، وبالتالى تزيد من متعتنا ؛ أما الرذيلة ، فتسبب التأنيب ، والنقد ، والعداء ، وبالتالى تسبب الألم (١).

***

ولكن ، هل الخير الاجتماعى هو الفضيلة الصرفة ؟ هل تنجح جماعة تنفذ واجبها بتمام الدقة فى أن تزدهر أو حتى فى أن تعيش ؟ ذلك مالم يشك فيه لوك ؛ ولكن ذلك أيضاً هو ماشكك فيه ذهن خبيث ، متحرر ، أزعجه علماء الأخلاق الذين يزعمون أنه ليس فى قلب الانسان إلا الكرم ، والعطف ، والايثار . كان هذا الرجل هولانديا متجلنزا ، يدعى « برنارد دى ماندفيل » وكان من طائفة الفلاسفة المحدثين ، بمعنى أنه كان يعلن تفكيره بكل حرية ، دون أن يحسب حساباً لقادة الفكر ، أو العادة ، أيا كانت قيمتها . تدفعه جسارته إلى حب الآراء الغريبة التى تثير ضجة . والحق أنه أثار ضجة ، لما بدأ يحكى قصته . كان قد حاول ، قبل ذلك ، أن يقلد قصص « إيزوب » و « لافونتين » ؛ ولكن قصته هذه لم توضع للأطفال .

لقد ظهر فى ٢ أبريل عام ١٧٠٥ كتيب فى ستة وعشرين صفحة ، دون اسم المؤلف : « الخلية الطنانة ، أو اللصوص الذين انقلبوا شرفاء . » ذات مرة ، كان هناك خلية تشبه مجتمعاً بشريا حسن التنظيم . لا ينقصها اللصوص ، ولا المتعيشون على الاحتيال والاختلاس ، ولا الأطباء الفاسدون ، ولا القساوسة الفاسدون ولا الجنود الفاسدون ، ولا الوزراء الفاسدون ، وكان لها ملكة فاسدة . وكانت تحدث كل يوم خدع وسرقات فى هذه الخلية ؛ والسلطة القضائية التى كان عليها أن توقف هذا الفساد ، كانت هى نفسها فاسدة . الخلاصة ، كانت كل وظيفة ، وكل طبقة مليئة بالرذائل : ولكن ذلك لم يحل دون ازدهار الشعب وقوته . والواقع ، أن رذائل الأفراد كانت تشارك فى الرفاهية العامة : وفى مقابل ذلك ، كانت الرفاهية العامة تولد سعادة الأفراد . ولما أدرك كبار الأشقياء ذلك ، أخذوا يشاركون بكل جهدهم فى سبيل الخير العام .

---

(١) لوك : «مقال عن الادراك الانسانى» الكتاب الثانى ، الفصل ٢٨ .

لكن حدث تغير فى عقول النحل ، إذ واتاه تفكير غريب فى ألا يقبل بعد ذلك إلا الشرف والفضيلة ، فطالب باصلاح كامل . وكان أعلاه صوتا أكثره بطالة ولصوصية . حينئذ أقسم « جوبيتر » أنه سينقذ هذه الخلية الزائطة من الرذيلة التى كانت تشكو منها ؛ قال ذلك ؛ وفى الحال ، استولى حب الخير المحض على القلوب .

وسرعان ما سبب ذلك دمار كل الخلية . لم يعد بعد لا إفراط ، ولا أمراض : وبالتالى لم تعد حاجة إلى الأطباء . لم يعد بعد نزاع ، ولا دعاوى : فلم تعد حاجة إلى المحامين ولا إلى القضاة . ولما أصبح النحل مدبراً وقنوعا لم يعد ينفق شيئا : وبالتالى لم يبق ترف ولا فن ولا تجارة . وبذا عم الحزن والخراب.

وجد النحل المجاور أن الوقت مناسب للهجوم ؛ فبدأت المعركة . ودافعت الخلية عن نفسها وانتصرت على الغزاة ، ولكنها دفعت ثمنا غالياً لهذا الانتصار . لقد مات فى هذه المعركة آلاف من النحل الشجاع . وطار باقى النحل — فى عزة ووقار — إلى جوف شجرة ، خوفاً من أن يقع فى الرذيلة مرة أخرى . لم يبق للنحل إلا الفضيلة والبؤس .

« أبطلوا شكواكم ، أيها الحمقى ! إنكم تحاولون عبثا أن تربطوا بين عظمة الشعب والفضيلة . لا يتوهم إلا المجانين أنهم يمكنهم أن يتمتعوا بخيرات الأرض ، وأن يكتسبوا الشهرة فى القتال ، وأن يعيشوا فى يسر ورخاء ، وأن يكونوا فى نفس الوقت فضلاء . أتركوا هذه الأحلام الزائفة ! ينبغى أن يدوم الخداع ، والترف ، والبطلان ، إذا أردنا أن نتمتع بثمارها الشهية ... »

ما أكثر المناقضات التى أعقبت هذا الكلام ! ما أكثر ما أثاره من نقاش! كان « برنارد دى ماندفيل » أزرق الناب ، ولم يسمح بأن يفوت شيئاً أياً كان. إنه عاش طويلا ، ولكن قصته هذه عاشت أطول مما عاش ، وما زلنا نناقشها إلى الآن.

الفصل الخامس

السعادة على الأرض

السعادة ؛ أتركها وديعة بين يدى العالم الآخر؟ هناك ستكون الظلال خفيفة ، واهية ؛ بل لن تكون ظلال ، ولكن بعض الجوهر الأبدى ، الذى يستحيل أن نتصور صورته . لن يكون هناك إكليل غار ، ولا قيثار ، ولاموسيقا سماوية . السعادة ؛ فلنقتنصها على الأرض . أسرعوا ، نحن فى عجلة ؛ لاضمان فى الغد ، ولا عبرة إلا بالحاضر ؛ غافل من يقامر على المستقبل ؛ فلنضمن أولا رفاهية بشرية صرفة .

هكذا فكر علماء الأخلاق المحدثون ، الذين أخذوا يبحثون عن السعادة فى الحاضر .

***

لكى نحقق حياة سعيدة ، يمكن أولا (كوسيلة أولى) أن نفكر فى هدوء ودعة ، كما يليق بالفطنة الخالصة ، وأن نلطف من حدة الخيال الذى يبالغ فى تصوير الشرور . لأنه إذا تعلق الأمر باختراع الشرور ، فمقدرتنا لاتحدها حدود ؛ نحن نضخمها ، ونظنها غريبة ليس لها دواء ؛ بل إننا نحس بعض الميل إلى الألم ، ونعزه . ولهذا الخيال الخادع عيب آخر : فانه يهدف إلى متع مستحيلة ؛ إنه يغرر بنا باكثاره من السراب : فنسرع للحاق به ؛ ولما كنا ننخدع فى كل مرة ، فاننا لم نعد نقدر سأمنا . فلنتعلم كيف ننظر إلى الحياة على ضوء الواقع ، ولا نطلب منها أكثر من طاقتها . إننا نشكو دائما من حالة لا ترضى: ولكن ، لو فرضنا أننا اطلعنا ، قبل ولادتنا ، على كل الحوادث ، وكل المصائب التى يمكن أن تكون من نصيبنا : أفلا تتملكنا الدهشة ؟ وإذا قدرنا الأخطار التى نجونا منها أفلا نكون فى أوج السعادة بأننا ضمنا سلامتنا بهذا الثمن الزهيد؟

« العبيد ، وأولئك الذين لا يجدون الكفاف ، وأولئك الذين لا يعيشون إلا من عرق الجبين ، وأولئك الذين تنهكهم الأمراض ، هناك قسما كبيراً من الجنس البشرى . ما كان أقربنا من أن نكون من هؤلاء ! فلنعترف إذن بمدى الخطر فى كوننا بشراً ، ولنحتسب سالم يصبنا من البلايا ، عدداً من الأخطار نجونا منها (١) . »

و بما وصلنا إليه من نظرة سليمة ، فلنسع إلى إدارة رزقنا إدارة حكيمة : لعله قليل ، ولكنه حقيقى . فلنعن بتجنب الشهوات ، التى ليس وراء عنفها إلا الحزن والارتباك ؛ فلننشد الهدوء . و إذا ردد الناس أنه لا طعم له ولا لذة ، فلنهز أكتافنا : « أى فكرة لدينا عن حالة البشرية ، لو شكونا من الهدوء ؟ » فلنعرف كيف نبتعد عن المراكز التى تطمح إليها الأنظار ، الشهرة ، والطمع ، وكل الأخطار التى تهدد الرحلة الهادئة لزورقنا المسكين ، الذى يجب أن نقوده برفق نحو هدوء الميناء . فلنكن متفقين مع أنفسنا : إن ضميراً واثقاً بنفسه لنعم الملجأ لنا . ولنحرص على رزقنا القليل ، حرص البخيل ، مخافة أن نضيع منه أى نزر يسير . إن ضربة من ضربات الحظ يمكن دائما أن تحرمنا منه ، بالرغم من تحوطنا الدقيق . أما إذا احتطنا وسهرنا عليه ، فان حظنا فى الاحتفاظ به ليزيد : لأننا ، بقدر ما نكون عقلاء ، نكون بناة لحياتنا .

متع بسيطة ، نصيب متواضع من سعادة لا نستطيع الوصول إليها ؛ حديث ممتع ، أو رحلة صيد ، أو مطالعة كتاب : فى ذلك ما يكفى لشغل أيامنا . فلنتذوق هذه المتع المضمونة بدلا من الاعتماد على غير المضمون . « إننا نملك الحاضر بين يدينا ، ولكن المستقبل دجال مشعوذ يخطف الحاضر منا ، — ساحراً عيوننا . » فلنتمتع بالخيرات البسيطة ، كأنها وهبت لنا من قوة تستطيع أن تحرمنا غداً من هباتها بنزوة من نزواتها . فلنحذر تفويت سوانح الفرص ، ولنحذر الخطأ فى خصائص المتع . « المسألة مسألة حساب ، والحكمة تقتضى أن نوفر دائما فى حجارة اللعب . . . »

إن ذلك الموقف للمقامر الماهر ، الذى لا يكف عن الاهتمام باللعب ، والذى يضارب أو يتخلى عن المضاربة بدراية ، لا يخلو من بعض الجمال . لنعترف

---

(١) فونتنل ، عن السعادة . ولقد تبعنا أفكار فونتنل من قريب ، فى كل هذه الفقرة .

مع ذلك أنه ليس فى طوق الجميع ، بل يقتضى ذكاء بصيراً وثبات جأش خارقاً للعادة ؛ وينظر إلى الشهوات كأنما يكفى أن نستعمل عقلنا للتغلب عليها ، وإلى الخيال كأنه عبد ذليل ؛ وينترض يسر الحال ، واستقلالا ، ووقت فراغ : سعادة أنانية . . .

***

يعرض البعض لنا ضرباً آخر . الشئ الذى يجب أن نستأصله من روحنا، لكى نحس تمام الراحة ، هو الشعور بمأساة الحياة . إن هذا الشعور يبعث فى نفوسنا الألم طوال حياتنا ، وحينما يحين حيننا ، يثور ويهتاج : حينئذ تلوح مأساة أخرى ، مأساة الآخرة . ما أسعدهم ، أولئك الذين رحلوا إلى الشاطئ الآخر بثغر باسم (١). لم يعرفوا ذلك الاضطرام الحالك عدو طمأنينة النفس ، الذى لا يكفيه إزعاج من يتملكهم ، بل يخلق فيهم حمية متعصبة لاذاقة غيرهم العذاب . حماسة ، تجلّ ، خوف معذب على الدوام ، تخيلات مرعبة عن الجحيم والعذاب ، كيف نستبعد كل ذلك ؟

بطريقة بسيطة ؛ بفضل استعداد فكرى يسمى الخلق المرح : good humour, good nature يكفى أن نجده . ضع على أنفك منظاراً ناجعاً ، ذا لون وردى جميل : يضحك لك كل شئ . يوم تصبح الانسانية مستعدة للابتسام ، يوم تزول تلك الجفوة الفكرية التى تزيد حدة الشرور . لاتستخفوا بفضل « الخلق المرح » ، فانه فضيلة فعالة تؤثر كعلاج دائم . يقول سبكتاتور — الذى شرع ، كما هو معلوم ، فى إصلاح معاصريه رويداً رويداً ، موزعاً عليهم قليلا من الأخلاق فى كل صفحة من صحيفته — إن الخلق المرح ثوب يجب أن نرتديه كل يوم : كم يكون العالم أفضل !

لقد وجد هذا الشعور المتفشى ، الذى لم يكن مجهولا فى فرنسا ، ولكنه كان أقوى فى انجلترا ، بماله من تأثير ناجع ضد الميل العام إلى السوداء Spleen — الذى لاحظه المراقبون — وضد التعصب البوريتانى — وجد مفسراً مهذباً فى شخص أنطونى أشلى كوبر ، كونت دى شفتسبرى Shaftesbury .

---

(١) ديلاند Deslandes تأملات عن العظماء الذين ماتوا بثغر باسم ، ١٧١٢ .

نحب أن نتملى بضع لحظات فى هذا الوجه الرقيق . كان لدى شفتسبرى ، على ما يظهر ، أسباب كثيرة تدعوه إلى التفاؤل : فهو عريق الأصل ، ابن لرجل الدولة ، حامى لوك ؛ وكان لوك نفسه يشرف على تنشئته ؛ ولما كان غير معد للحياة السياسية ، فقد استمرأ رويداً رويداً متع الفكر والفن ؛ ولما كان غنيا فقد استطاع السفر ، واقتناء الجميل من اللوحات والنادر من الكتب ، ومساعدة المحتاجين من رجال الأدب ، من أشال دى ميزو وبايل ، ولى لكير : كان الحظ قد حباه بكل هباته . لم يغفل منها إلا واحدة : الصحة . ذلك أنه كان مصدوراً ؛ فترك قصره ، وأراضيه ، وأصدقاءه ، ووطنه ، باحثا بلا جدوى فى جو مونبلييه ، ثم فى نابولى ، عن علاج للمرض الذى قضى به نحبه ، فى الثانية والأربعين . بحيث إنه كان لديه أسباب كثيرة للتفاؤل ، وسبب واحد ، فاصل ، لكى يلعن الحياة .

إنه يجدها جميلة ، ويجدها سعيدة : وبذا تأخذ تأكيداته ، الوادعة ، والباسمة بالرغم من ألمه ، لهجة مؤثرة . سواء فى بستان انجليزى عريق الشجر ، أو فى ضوء البحر المتوسط الشفاف ، يتكلم شفتسبرى مع أقرانه ؛ لا يبدو حديثه أبدا ثقيلا متكلفا ، بل لطيفاً بسيطا ؛ وإذا كان فيه عيب ، فهو تشعبه وأناته . حيناً يذكرنا بأجمل أفكار فلاسفة اليونان ، أو شعراء اللاتين ، فتزينه دون جهد ؛ وحينا يستعين بالحاضر ، فيوقظ واقعة معاصرة ، أو شخصية حية : وهكذا ينوع مفاتنه . لا يستخف بالسخرية ، أو بمعنى أصح بالدعابة : فالمعنى ليس واحداً ؛ إذ السخرية للفرنسيين ، والدعابة للانجليز . إن لهجته الملتوية تتسلط عليها فكرة ثابتة ، اعتقاد يرمى إلى الاستحواذ على القلوب بافتتانها . كيف نصل إلى السعادة ؟

بجعل الناس أكثر إنسانية — إذا صح التعبير — وبتجريدهم من تلك الرزانة الباطلة ، ومن نفاقهم ، ومن الحماسة التى تخدعهم فى شأن مشاعرهم الحقيقية . إن العدو الذى يهاجمه شفتسبرى فى « رسالة » بقيت بحق مشهورة (١) هو الحماسة : لا تلك العبقرية المبدعة التى تخلق روائع الجمال ؛ بل الحماسة الدينية ، التى تدفعنا إلى الاعتقاد بأننا نملك شرارة من الألوهية ، بينما نحن فى الواقع

---

(١) رسالة عن الحماسة ، ١٧٠٨ . *A letter concerning Enthusiasm*

إنما نحبذ أسوأ نقائصنا : الحزن ، الكسل فى التفكير ، التعلق بالغريب ، الغرور ، الزهو الباطل ، وأكثر من ذلك فضول التطفل على حياة الغير واضطهاد الضمائر ؛ وعادة الحقد والقسوة . . . فلنستعمل ضد الحماسة سلاح العقل السليم ، وحرية الفكر ، بل حتى — وهذا أقل ما كنا نتوقعه — السخرية فى الوقت المناسب .

لنتعلم الضحك : ليس هناك مبدأ أصوب منه فى الطب النفسانى . هل من الصواب أن نستسلم للغضب ، ونقابل حدة المحتدين بالحدة ؟ كلا ! بل الأفضل أن نضحك . فلنزل تعاظم المتعاظمين ، ولنسخر من المحزونين ؛ أما المتحمسون ، فلنهزأ بهم .

هاهم أولاء بعض الساكين من اللاجئين إلى لندن ، البروتستانت الفرنسيون القادمون من السيفين ؛ إنهم يفيضون بحماسة مقدسة ، ويتنبأون ، ويقعون فى الهذيان ؛ حتى أصبحوا خطراً وقبضت عليهم السلطات . هل ينبغى أن نسجنهم ؟ أن نحكم عليهم بالاعدام ؟ أن نجعل منهم شهداء ؟ — لقد مثلهم الناس تمثيلا تهريجياً فى المساخر ، وهذا فيه الكفاية : فانهم يفقدون ، بعد هذه السخرية ، كل أهميتهم . لنترك المرض الذى انتابهم يأخذ مجراه ، ولنضحك، ولنبتسم : وسيفقد قوته ، وسيشفى من تلقاء نفسه . آه . . . ! لو أننا تصرفنا هذا التصرف فى كل المجادلات الدينية ، منذ بداية الأزمان ، كم من أكوام من الحطب كنا أطفأنا وكم من أرواح كنا أنقذنا !

يجب أن نعامل الدين بلا تكلف : فان المرح يقود إلى الايمان الصحيح ، والسآمة تقود إلى الكفر . فاذا كان الله رحيما ، وهو لاشك رحيم ، فلنفكر فى شأنه فى حالة نفسانية هادئة ، بدلا من الخوف والغم . أى زيغ يجعلنا لا نبتهل إلى السماء إلا ونحن فى بؤس ، أو قلق أو مرارة ؟

« الخلاصة ، يا عزيزى اللورد ، أن الطريقة السوداوية التى نباشر بها أمور الدين هى التى تجعله ، فى اعتقادى ، مفجعاً إلى هذا الحد ، وتدفعه إلى خلق كل هذه المآسى المؤلمة فى الدنيا . إن رأيى هو الآتى : طالما نحن نعامل الدين بالحسنى، فلا خشية من أن نستعمل حياله مرحاً زائداً عن الحد ، ولا أن نتمادى فى حرية فحصه ، أو أن نرفع الكلفة بيننا وبينه . لأنه إذا كان حقيقياً ، فلن يحتمل الفحص فحسب ، بل سيفيد منه ؛ وإذا كان مختلقاً مزيفاً ، فسينكشف ويفتضح . »

كان طبيعياً ، بل ضروريا ، أن يجابه شنتسبرى الرجل الذى كان أكثر ما يكون إحساساً بفاجعة الحياة : باسكال . إنه يعرف نظرية الرهان(١) ، ويرفضها . يقول : إن الرهان على الدين ، بحيث إذا كان الله موجوداً نكسب كل شئ ، وإذا لم يكن موجوداً لا نخسر شيئاً ، يعنى تقليد المتسولين الماكرين الذين نقابلهم فى الطريق . إنهم يقولون لكل مار : يا مولاى . فاذا كان المار لورداً ، فسيغضب لو لم يخاطب بلقبه ، وإن لم يكن لورداً ، فسيفرح لتعميده بهذا اللقب ؛ وهو فى الحالتين ، سيجود بالحسنة على هذا المتسول . . . أفليس إهانة لله أن يستند إيماننا على مثل هذا الحساب ؟

إن الله ذاته ليس مرعبا . إنه ليس جائرا ، كما يريده أشياع « القدرية ».

---

(١) نظرية الرهان : ذات يوم طلب عالم رياضى من باسكال أن يقنعه بالبراهين الهندسية بوجود الله . ولما عارض باسكال بأن الله يخرج عن متناول العقل لأنه أبدى لا متناه ، رد العالم بأنه من المستحيل حقا أن نعرف ماهية الله ولكن ليس من المستحيل أن نعرف وجوده . وضرب مثلا لذلك ، العدد اللامتناهى الذى لا شك فى وجوده وإن كنا لا ندرك ماهيته . فأجاب باسكال بأن ذلك يرجع إلى أن بيننا وبين اللامتناهى صلة بالنسبة للامتداد ، وتفاوتا بالنسبة للحدود . أما الله فليس له امتداد ولا حدود ، ولذلك لا يمكننا إدراك وجوده إلا استناداً على الايمان والأنبياء والكتب المقدسة . ولكنه لم يشأ أن يعترف بالعجز ، فاضطر إلى أن يضع نفسه فى مكان سائله وأن يقنعه باستدلال بسيط ، فضرب مثل الرهان وقال : « إن عدم المراهنة على وجود الله مراهنة على أنه غير موجود . فالى أى جانب تنحاز ؟ فلنزن المكسب والخسارة بالانحياز إلى الجانب المراهن على وجود الله : إذا كسبت تكسب الكل ، وإذا خسرت لا تخسر شيئاً . راهن إذن على أنه موجود دون تردد ... » (أفكار باسكال ، بقلم ستروفسكى ، الفصل السادس ، الرهان) . Les Pensées de Pascal, par Strowski, de l'Institut. [المترجمان]

وقد انتقد فولتير أفكار باسكال ومن بينها هذه فقال : « تبدو هذه الفكرة باطلة غير لائقة فان فكرة اللعب هذه ، والمكسب والخسارة ، لا تليق بجدية الموضوع . غير أن صالحى فى الاعتقاد بشئ لا يثبت وجود هذا الشئ . تقول إنك ستعطى لى مملكة الدنيا إن كنت أصدق بأنك على صواب . أريد إذن بكل قلبى أن تكون على صواب ؛ ولكن ، إلى أن تثبت ذلك ، لا أستطيع أن أصدق كلامك . إذا كنت تريد أن تقنعنى فاستعمل طرقاً أخرى ، ولا تتكلم عن اللعب ، والرهان ، والوجه والظهر . لا ترعبنى بالأشواك التى تبذرها على الطريق الذى أريد أن أتبعه ، بل يجب أن أتبعه . إن استدلالك هذا لا يصلح إلا لدفع الناس إلى الكفر ، لولا أن الطبيعة كلها تنطق بوجود الله ، بقوة وصراحة بقدر ما يبدو فى برهانك من ضعف وإبهام . » (فولتير : رسائل فلسفية الرسالة ٢٥ ، عن أفكار باسكال) . [المترجمان]

إن الله ليس حانقاً علينا ، كما يريده أولئك الذين يخافون من العذاب الأبدى . لا يجبر الله الناس على أن يكونوا متغرضين ومنافقين ، كما يريده أولئك الذين يتمسكون بأهداب الفضيلة ابتغاء أجر فى الآخرة . إن الله هو الطيبة ، والاحسان ، المنتشر فى العالم : فمن كان طيبا ، محسنا ، فهو به على اتصال .

« إن محبة الغير ، والسعى فى سبيل الخير الشامل ، والعمل لصالح الجميع ، بقدر ما فى وسعنا من إمكان ، هو بلا شك الوصول إلى الطيبة المثلى ، إنه تحقيق ذلك الخلق الذى نسميه إلهياً . . . »

مجادلات ، ومنازعات ، ومناقشات ، وضوضاء ، ذلك ماشهدناه عشرين سنة ، فى ذلك العصر الذى لم يكن قد اعتراه الملل ، الذى كان يكره عدم الاكتراث ، الذى كان يخاف الشك ، والذى كان يبحث . إن شفتسبرى ، وإن كان مقتنعاً بذلك مثل معاصريه ، إلا أنه يسمعنا لهجة أقل حدة ؛ فان تحضّره ، ووداعته ، ورقته الأرستوقراطية ، وغناه بالمحبة واللطف ، ومذهبه الذى يعتقد أنه عقلى بينما هو ليس إلا فضفضة عاطفية لقلب كريم ، تريحنا وتؤثر فينا . والأمر الذى لا يصدق ، هو أن هذا العالم الأخلاقى لا يستطيع أن يكره الناس ، ولا أن يشتد فى حكمه عليهم ؛ ولا يعد الزمن الذى يعيش فيه سيئا : حقاً ، إنه زمن زاخر بالشذوذ وبالجنون ، ولكنه شذوذ نشهر به ، وجنون نسمه بالفضيحة ؛ زمن يحييه نقد حر ، هو بداية السلام . وإذا وجدنا علاج شافتسبرى بسيطا جداً ، ووصفته عن السعادة غير كافية ، وفلسفته جد مألوفة أو بيتية ، كما يقول فى رسالته : this plain homespun philosophy of looking into ourselves, this plain honest morals فان عزمه لا يثبط بتلك السهولة : بل يريد أن يجعلنا نتذوق ، دون أن نترك الأرض ، الملذات السماوية بفضل سحر الجمال .

Beauty and Good are one and the same الجمال والخير شئ واحد. مادام الكون انسجاما ، فلا يمكن أن نتصور فيه شذوذاً ؛ ومادام وعينا الأخلاقى بالخير والشر يرمى إلى تحقيق هذا الانسجام ، فيجب أن نريد هذا الانسجام بتمامه . إن الرذيلة خطأ «أستطيقى» ؛ وارتكاب هذه الخطيئة بالاختيار يعد أولا تعديا على المنطق ، ثم تعديا على الاخلاق ، ثم تعديا على الذوق السليم . فكما يمثل الفن روائع عالم المحسوسات ، — التى هى انعكاس «الفكرة»

المنظمة للأشياء — فكذلك يجب أن يحاول الانسان أن يمثل فى ذاته ، الجمال الأخلاقى ، أو المثل الأعلى للجمال الأخلاقى ، الذى ليس إلا انعكاساً آخر لنفس الفكرة . إن المرء فنان ينحت تمثال نفسه ؛ يولد من نفسه أفكاراً صحيحة ، وأفعالا فاضلة ، وصوراً جميلة ؛ وهذه المجموعة ، التى تحققها إرادته المبدعة ، هى ما نسميها السعادة . إن الكافر يحرم نفسه من هذه المشاركة فى النظام ؛ إنه مخطئ ، إنه شرير ، إنه ينشر القبح فى العالم ، إنه تعس .

هكذا يفكر الرجل الذى أسميناه بحق « فنان الانسانية الموهوب » . وهو ، لكى يقتنع بأن الأخلاق اجتماعية فى جوهرها ، يصغى إلى لوك ، الذى كان مربيا له . ولكى يتكلم عن السعادة ، يصغى إلى سبينوزا : الذى يرفض فكرة الخطيئة ، ثم ينصح الحكيم أن يتذوق متع الحياة ، ورقة العطور ، وجمال النبات ، والموسيقا ، واللهو ، والتمثيل : فان يستمرئ دموع الجنس البشرى إلا إله يعاديه . ليس سبينوزا مغموراً ببهجة خفية عميقة فقط : فان البهجة ، عنده ، هى الشعور بتحقيق صفة سامية للكائن ؛ والحزن ، هو الشعور بالحط من شأن الكائن ؛ ولكنه فوق ذلك ، يقدر ثمناً عالياً ، أو قل قيمة فلسفية ، للمرح . وشفتسبرى يتبعه ؛ ولكنه ، يفضل الخير دائما ، ولذا نراه يتبع أفلاطون أيضاً . فاذا كان الوقت الذى يعيش فيه يذكرنا ، من كل نواحيه ، بزمن النهضة ، فكيف يمكن أن يغيب فيه ذكر أفلاطون ؟ إن أساتذة كامبردج يتبعون مذهبه بشئ من التقديس ؛ يشرح « كادورث » الدنيا بخواص « بلاستيكية » تقبل التشكيل ، وسيطة بين الأفكار والخليقة . ويحب شفتسبرى أن يتأمل الظلال الكبيرة ، فى لعبتها الالهية على جدار مغارتنا (١) . يتخيل

---

(١) رمز المغارة *Allégorie de la Caverne* ـ شرح أفلاطون نظريته عن الأفكار فى رمزيته المشهورة عن المغارة حيث يمثل الناس بقوم مكبلين بالأغلال : تحت الأرض مغارة ينيرها ضوء خاب ضعيف ينفذ من كوة فى أعلى المغارة . وفى المغارة أناس مكبلون بالأغلال من أيديهم وأقدامهم ، بحيث إنهم لا يستطيعون حراكا ولا يرون إلا الصخرة التى أمامهم . من ورائهم يمر بعض الرجال يحملون تماثيل من الحجر . وفى جوف المغارة نار موقدة تلقى بظلال التماثيل على الجدار . من البديهى أن أولئك الناس المقيدين بالاغلال لا يرون إلا ظلال هذه التماثيل على الجدار الذى يقع أمامهم . فيعتقدون أن الحقيقة هى هذه الظلال — يقول أفلاطون إنه ينبغى تشبيه عالمنا المرئى بالاقامة فى السجن ، وضوء النار التى تنيره بتأثير الشمس . فالأشياء التى نرى هى الأشياء التى تخص العالم =

أنه يكفى أن تصغى إلى انسجام الأفلاك ، لكى نكف عن الشكوى والصراخ .

وفى نهاية عمله ، يبدو له أن السعادة لم تعد تظهر فى المذهب الرواقى ، الذى يحتمل بل يحتقر الشرور التى لا يستطيع أن يتفاداها . لا تشترى السعادة بالزهد ، أو بالكبت الدائم لطبيعتنا الفاسدة . لم تعد الأرض مقرا للامتحان، حيث المصائب التى تثقل كاهلنا أرفع قيمة من المتع ، لأن أولئك الذين يبكون سيجدون عزاء(١) . يريد العالم أن يحول أنظاره عن المسيح المفجع ، الذى صلب لانقاذ البشر ؛ لم يعد يريد أن يسمع نداء ذراعيه الأبكم . إن السعادة إبراز قوة كامنة فى أنفسنا يكفى أن نحسن توجيهها . فارتضاء العذاب ، وشهوة التضحية ، والكفاح ضد الغريزة ، وجنون الصليب ، كل هذه ليست إلا أخطاء فى التقدير وعادات سيئة . إن إله العقل يحرم علينا أن نتصور وجودنا الفانى كاستعداد للخلود

***

شاركت فى تأسيس السعادة على الأرض فضيلة ؛ فضيلة جديدة .

لم تكن تبدو فضيلة فى ذلك الوقت ؛ بل كانت ضعفاً ، بل تكاد تكون جبناً . التسامح حيال كل الآراء ، التسامح حيال رأى أخى ، ولو كان مخطئا، ولو انتهى الأمر به إلى فقدان روحه ؛ التسامح حيال رأى أدعياء النبوة والكاذبين — هذا يعنى أننا شركاء علنا فى الباطل والضلال . بينما الواجب على النقيض ، هو أن نفتح عيون الذين يعمهون ، وأن نهدى الضالين إلى الطريق المستقيم . لا ريب فى أنه لا ينبغى أن نشتد على الضمائر : ولكن هل يجوز لنا أن نتركها وشأنها ، بينما نعرف أن اليقين واحد ، وأن السلام الأبدى

= الذى لا وجود له إلا فى الفكر ، والشمس التى تنيرها هى فكرة «الخير» علة العلم وعلة الوجود . أنظر : مجموعة مصنفات أفلاطون ، طبع جارنييه ، الجزء الرابع (جمهورية) الكتاب السابع ، ص ٢٤٧ ، وعلى الأخص مقدمة الجزء الرابع Robert Baccou ص ٤٢ ، ومقدمة شامبرى Chambry فى الجزء الأول . [المترجمان]

(١) بوسويه : رثاء ماري تيريز النمسوية Oraison funèbre de Marie-Thérèse d'Autriche «المسيحى ليس حياً على الأرض أبدا ، لأنه يتعذب فيها دائماً ، والعذاب تمرين ، إمتحان ، بداية الموت »

يتوقف على معرفة اليقين ؟ إن الواجب يمنعنا من التسامح ، وبالمثل الشفقة . إذن ، لا يمكن أن يكون المتسامحون إلا سوسنيانيين متنكرين ، أناساً يمحون الصفات التى تميز الكنيسة الحقيقية ، أناساً يتقبلون كل المارقين فى وحدة الايمان ؛ ارتيابيين ، يعلنون أن لا فرق هناك ولا مفاضلة بين الأديان ؛ عصاة ، عقولا قوية . كان من المستحيل أن يكون رجل مثل بوسويه متسامحاً ؛ ولا رجل مثل بيليسون ، حتى حينما كان يفاوض ليبنتز فى رجوع البروتستانت إلى الكنيسة الرومانية . لقد كتب إلى ليبنتز فى عام ١٦٩٢ — « أعتقد أن من نسميهم سوسنيانيين ، وسعهم من نسميهم أشياع الديزم وأتباع سبينوزا ، قد شاركوا كثيراً فى انتشار ذلك المذهب ، الذى يمكن أن نعده أكبر الأخطاء ، لأنه يتفق معها كلها . ولما كانوا يخشون ألا يحتملهم الناس ، وأن تتدخل السلطات المدنية فى شئونهم ، فقد وجدوا صالحهم فى أن يقولوا باحتمال كل شئ . من هنا تولد « مذهب التسامح » ، كما يسمونه ؛ وتولدت كلمة أخرى أحدث من الأولى ، هى عدم التسامح الذى يتهمون به الكنيسة الرومانية . . . »

ولكنه كان يتكلم بلا جدوى ؛ وكان هناك تغيير ينتاب الأمور ، وكان يستشعره جيداً ؛ وجعل التسامح — بعد عناء شديد وجهد كبير طال سنين وسنين — يتخذ لونا جديداً ، فيصبح فضيلة .

كان رهان معركتين ، إحداهما سياسية ، والأخرى دينية . نعم ، إن لملك فرنسا الحق فى استعمال القوة لارغام العنيدين على الرجوع عن غيهم ؛ ولحكام هولاندا الحق فى أن يعزلوا من الوظائف وأن يزجوا فى السجن من يأبون الاعتراف بأى سلطان فى موضوع التفكير ، وبذا يعكرون السلام و يهددون كيان الدولة ؛ ولملك انجلترا الحق فى أن يحرم من حماية القانون ، أولئك الكاثوليك البشعين الذين يعلنون دائما سيادة روما على السلطات المدنية . — كلا . لا يستطيع الناس ولا يجوز أن يزعجوا الضمائر فى نشاطها ، لأن كل هذا الموضوع من اختصاص الله وحده . إن روحا مسيحية حقة ، لتعلم وتشعر أن الاضطهاد يخالف روح الانجيل مخالفة الظلام للنور . بحيث إن ملكا مسيحياً يجب أن يكون متسامحاً حيال كل رعاياه ، طالما يحترمون حكمه السياسى . هكذا كان وليم أورانج ، كما قال المؤرخون البروتستانت . — « قال إنه كان

بروتستانتيا ، وبصفته هذه ، لم يستطع أن يتعهد إلا بالاحتفاظ بدين الاصلاح ، وإنه على كل حال ، لم يعرف على وجه الدقة ماذا يعنى الكفر ، ولا إلى أى حد قد يمتد معنى هذه الكلمة ؛ أما عن نفسه ، فانه لن يحتمل أبداً أن يضطهد أحداً من أجل دينه ، وإنه لن يعمل على تغيير إيمان أحد أيا كان ، إلا بالاقناع ، حسب الانجيل (١) . » ولقد وضع فى عام ١٦٩٠ « عقد التسامح » مقابل « فسخ أمر نانت . »

وكانت المعركة الدينية أشد . أعطى إشارتها الأولى ، عام ١٦٧٠ ، الراعى « هويسو » ، حين عرض على المذاهب أن تلقى السلاح ، لانتخاب عقيدة من السعة بحيث تشمل العالم بأسره . الأمر الذى دفع جوريو إلى الاحتداد ؛ يقول لنا إنه ألف كتابه « فحص فى كتاب الوحدة أو بحث عن التسامح فى موضوع الدين » بقصد مناقضة هويسو : « إن كرهى لهذا التسامح المهين نحو الالحاد لهو عندى داء قديم قد اشتد على مر الزمن . » واستمر الكفاح فى أرض الملجأ ؛ وأخذ الطرفان يتقارعان بالحجج دون أن تتلاقى ؛ وتتابعت الأبحاث تلو الأبحاث . وبين أكثر رعاة البروتستانت عرفانا ، مثل « هنرى باناج دى بوفال » ، و « جيديون هويه » ، وألى سورين Elie Saurin ، أن عدم التسامح ، لا التسامح ، خطيئة ضد الفكر ؛ وإذا كانوا حقاً ، قد حرموا الكاثوليك من عطفهم ورعايتهم ، كما فعل بهم « وليم الثالث » باستبعادهم من « عقد التسامح » ، — فقد حالفوا على الأقل علماء وحكماء هولنديين ، مثل « جلبرت كوبر » ، وأدريان باتس Paets ونودت Noodt ، المخلصين لتقاليد بلادهم الحرة ؛ وكانوا جميعاً يسعون فى سبيل إقامة فضيلة من الصعب إقامتها . وكانت أحياناً تظهر عواصف تفسد كل شئ : لقد تسبب بايل فى اشتداد تلك المجادلات العنيفة ، بنشر « إعلانه للاجئين » — الذى نسب إليه بحق أو بغير حق — والذى كان يحمل على عدم التسامح البروتستانتى حملته على عدم التسامح الكاثوليكى . ولكن لم تكد العاصفة تهدأ ، حتى تغيرت نظرة الناس نحو التسامح ، فبدا لهم مزدانا بغصن الزيتون .

---

(١) دافيد دوراند David Durand : تاريخ الجلترا منذ تأسيس الرومانيين ...، لراين توبراس Thoyras ١٧٢٤ - ١٧٣٦ . الجزء الحادى عشر ، ص ٤٨ : شعوره عن التسامح .

كان لوك أكثر الجميع إنسانية . ليس فى تلك الكتلة من المؤلفات نداء أبلغ ولا أكرم من مؤلفه «رسالة عن التسامح» *Epistola de Tolerantia* الذى نشره فى عام ١٦٨٩ والذى دافع عنه حتى مماته . كان لوك يقول بأعلى صوته : تذكروا أن التسامح هو جوهر المسيحية . لأنه إذا أعوزتنا الشفقة ، والرفق ، والعطف ، فكيف نجرؤ على الزعم بأننا مسيحيون ؟ إن الايمان يؤثر بفضل الشفقة ، لا بفضل الحديد والنار . وهل ينبغى أن يحرق الأخ أخاه ، من أجل بعض الاختلاف فى الآراء ، التى لن نعرف صحتها من بطلانها قبل يوم القيامة ؟ فليحارب الثائرون الغيورون — إذا راموا أن يعملوا — الرذائل والجرائم التى يرتكبها كل يوم إخوانهم فى الدين : فساد أنكد بلا شك من رفض المرء ، لعدم ارتياح ضميره ، بعض قرارات الكنيسة ! فالروحانيات شئ ، والزمنيات شئ آخر ؛ والمجتمع الدينى شئ ، والمجتمع المدنى شئ آخر : ليس للحاكم سلطان على الأرواح ، فليحذر أن يعتب أبواب المعابد . إن التسامح مطابق لانجيل المسيح ، وموافق للادراك السليم لكل الناس ، حتى إنه يمكننا أن نعد من يرفضون أن يدركوا لزومه وفائدته كوحوش . أى أهمية فى استعمال اللاتينية أو عدم استعمالها فى الكنائس ؟ أى أهمية فى السجود أو فى الوقوف ؟ فى ارتداء كساء طويل أو قصير ؟ يا من تؤمنون بالمذهب الكاثوليكى، وأنتم أيضاً ، يا أهل جنيف ، وأنتم يا ناكرى التعميد ، ويا أيها الأرمنيون ، والسوسنيانيون ، اعلموا أنكم لن تستحوذوا على روح بالقوة ؛ فليس لكم الحق ولا القدرة . تسامحوا فيما بينكم ، وتوادوا ، متحدين تجمعكم إرادة واحدة لفعل الخير .

الفصل السادس

العلم والتقدم

متنزه واسع منعزل فيه شخصان : مركيزة لعوب ورجل مجتمع ، صديق لها أو لعله عشيق ، يستغرقان عند انسدال الليل فى حديث . عن أى موضوع ؟ عن علم الفلك : « حدثنى عن نجومك . . . (١) » . إنهما متأنقان متكلفان مهذبان : هكذا يصورهما فونتنل ، لا لأن هذه طبيعته فحسب ، بل لأنه يريد إظهارهما محببين . يريد صراحة ألا يضير كتابه أحداً ، وأن يعجب الجميع ، وعلى الأخص أولئك الذين لا يعرفون شيئا ، وأن يسحر — قبل كل شئ — بظرفه وخفته الفاتنة . حتى ليكاد أن يفقد كتابه صفته العظيمة . ومع ذلك تنبثق فى وضوح النور ، رغم التكلف فى الأسلوب ، تلك العظمة السامية . يبدو رجل المجتمع والمركيزة ، وقد طواهما جناح الليل ، يعيدان ذكرى رعاة كلدانيا القدامى ، يستخبران الأفلاك ، ويتعجبان للنجوم بعد أن تعجبا للشمس — مثل سكان الأرض الأولين . رفيقان من أبناء الرغام ، يجترئان بعيونهما الحقيرة ، يسبران غور السماء .

إن المركيزة لا تعرف شيئا : ولكن فونتنل يعرف ، وسيعلمها فى خلال بضعة ليال ، سير الكواكب الذى يبدو فى الظاهر على هذا الغموض . كفى أخطاء ! لقد أخطأ العالم فى حركات الاجرام السماوية منذ زمن بعيد ! لقد تخيل الناس من زمن طويل أن الشمس تدور حول الأرض : إنه خطأ أولى ، جر وراءه كثيراً من الأخطاء . ولكن فى النهاية زال الضلال . « لقد أتى ألمانى يدعى كوبرنيكوس ، هدم كل تلك الدوائر المختلفة ، وكل تلك السموات الصلبة ، التى تخيلتها الأزمان القديمة . لقد دمر بعضها وفتت البعض الآخر .

---

(١) فونتنل : فى ابتسام العقل ، Le Sourire de la Raison . [المترجمان]

تملكته حماسة عالم فلكي نبيلة ، فتناول الأرض وخاها عن مركز العالم حيث وضعت من قبل ، وفي ذلك المركز وضع الشمس ، التي كانت أحق بهذا الشرف . . . » لقد انخدع القدماء مرة أخرى ، وأخطأ الناس لأنهم تبعوهم . ولكن بزغ عهد جديد . لقد فضح العقل والفحص هذه الأخطاء الأزلية . إن العلم يتكلم ، فيجب أن نصدق به ، لقد تغيرت الأرض والسماء .

لعل المركيزة تنتابها الدهشة لهذا الاكتشاف . لقد كانت تعتقد أن هذا الكون إنما خلق لها ، مثلما كان يظن ذلك الأثيني المجنون أنه يملك كل السفن التي تدخل ميناء بيريه ، فيا للوهم الذي تبدد ! إن الأرض بما فيها من أشغال، وحروب ، واضطراب ، لم تعد تبدو لها إلا كبرقة من دود القز ، برقة صغيرة ، ضعيفة ، وحقيرة ! ولعلها قد ترتعد فزعاً ، أمام تلك الهوة اللامتناهية التي تكشفت لها .

ولكنها على العكس ، تشعر ببهجة الموقفين ، يخالجها شعور من الكبرياء : إنها تسلم بهذا العلم المجدد . وهي تدخل في زمرة المؤمنين ، لم تعد من قطيع الوثنيين الذين لم يعرفوا الحقيقة أبداً ، ولا الكفار الذين يتغذون بالضلال : وهي بذلك فخور . فلنتخيل ، باحدى تشبيهات فونتنل المألوفة ، التي تحيل الأفكار المجردة إلى صور ظريفة — مثل (زورق ينزلق على نهر ، سفينة تنساب في المحيط ، كرة تدور على الطريق) — فلنتخيل تمثيلا في الأوبرا : فايتون يترك الأرض(١) ، الريح ترفعه فيحلق في السماء . لنفترض أن فيثاغورس ، وأرسطو ، وأفلاطون ، وكل أولئك الحكماء الذين يتردد ذكرهم على الأسماع ، يشهدون هذا التمثيل . سيقول أحدهم : « إن فايتون مركب من بعض أعداد ترفعه إلى أعلى . » وسيقول الثاني : « إن فايتون يرتفع ببعض خاصية سرية . » بينما يقول الثالث : « إن لفيتون شيئا من الشغف بأعلى المسرح ، فهو لا يرتاح مالم يكن هناك . » تخيل مئة حلم من هذا القبيل ، قدمتها الأزمان القديمة شرحا لتلك الظروف : أفلم يكن هذا يستدر الرثاء ؟ من حسن الطالع أن أتى ديكارت وبعض المحدثين وقالوا : « إنما يرتفع فايتون

---

(١) فايتون : في المثولوجيا اليونانية ابن الشمس . ولقد ألف الكاتب كينو Quinault أوبرا تدور حول اسطورته المشهورة (١٦٦٣).

لأنه مشدود بالحبال ، ولأن ثقلا ، أثقل منه ، ينزل . » لم يدر بخلد أحد أن ينظر إلى ماوراء الستار : يوم اكتشفت الآلة ، ويوم بدأنا نستعمل العقل ، عرفنا السر . يا للمتعة ، متعة الاكتشاف ! ويا للبهجة ، بهجة الحقيقة !

للمعرفة العلمية جمالها الخاص ، لأن تصور عالم مكتمل الترتيب ، تبدو أكثر الوقائع ارتباكا فيه نتيجة لأبسط الوسائل ، أو إن أمكن القول أقلها كلفة ، لشئ يفتن العقل . فليقل إعجاب الآخرين بهذا العالم الآلى : أما المركيزة ، فعندما تعلم أنه يشبه الساعة ، تزداد حبا له . أى شئ أحق بالاعجاب من هذا الانتظام ، هذا التوفير فى انتخاب الوسائل ، هذه البساطة؟ إن كشف قوانين الطبيعة يشعرها بلذة ذهنية ، رقيقة ، نادرة : « ليست متعة كالتى تشعر بها فى إحدى كوميديات موليير ، بل متعة لست أدرى فى أى مكان من العقل ، لا تدغدغ إلا الذهن . »

العلم ؛ لقد رأينا العلم فى كل مكان ، ونحن نقترب الآن من أولئك الذين يعدون علماء فى أوج العلم ، من أولئك الذين يملئون السبورة بأرقام تدير الرءوس ، أولئك الذين يتطلعون بالمرصدة ، أولئك الذين يشرّحون أجساد الحيوان والناس ، إننا ندخل فى مملكتهم الخاصة . إن فونتنل يدعونا إليها . وفونتنل فى الفلسفة يصطف بين « القلقين » ، وفى العلم بين « محبى الاستطلاع » وهذا نفس الشئ . فليقترب اللادينيون دون وجل من شجرة المعرفة ! ولسوف تؤثر الحقيقة على كل العقول كالهام سماوى . إن مؤلفه « محادثات عن تعدد العوالم ، ١٦٨٦ » لمقدمة ، عميقة ، خلابة ، لتفسير جديد للكون .

***

لم يصبح التفكير الهندسى فقط هو البدع ، بل الهندسة أيضاً . لقد هبطت من أعلى الذرى ، حيث رفعها العصر السابق ، إلى الجمهور المثقف . وفى باريس لقى عالم رياضى — جوزيف سوفير — شهرة عريضة بالقاء محاضرات تهافت عليها النبلاء ؛ وأصرت النساء على أن يكشف الرجال « تربيع الدائرة » قبلما يحاولون اكتساب حظوتهن . وهذا على الأقل ، ما تذكره « صحيفة العلماء » ، ساخرة من هوس ذلك الوقت : « منذ ماعرف علماء الرياضة سر الدخول إلى الأبهاء ، ناقلين إلى خدور النساء ألفاظ علم قوى جاف كالرياضيات ، عن طريق كوميدية

« ميركورى الأنيق(١) » Mercure galant ، يقول الناس إن ملكة الأناقة تتخلف ، وإننا لم نعد نتكلم فيها إلا عن مسائل ، ونتائج ، وقضايا هندسية ، وزوايا قائمة ، وزوايا منفرجة ، وأشكال شبيهة بالمعين ، وغير ذلك ؛ وإنه كان فى باريس منذ عهد قريب غادتان ، هوشت تلك المعارف من ذهنيهما ، حتى إن إحداهما لم تشأ قبول عرض زواج ، إلا إذا تعلم طالب يدها صنع المناظير التى تردد ذكرها فى الكوميديا المذكورة ، ورفضت الثانية رجلا غاية فى الكمال والشرف ، بحجة أنه حين تقدم يطلب يدها ، لم يقدم شيئاً جديداً عن تربيع الدائرة . » (٤ مارس ١٦٨٦) . ساداست المادة ليست سوى الامتداد ، فليس علم الطبيعة إلا علم الرياضيات . لقد شكر الناس فضل علماء الهندسة لاتاحتهم لهم تملك زمام المادة ، ولاستعاضتهم عن السفسطة واللغو — كالقول بأن الأفيون منوم لأن فيه خواص منومة — بضمان الحساب . فبفضلهم وجدوا مفتاح مغالق الظواهر الكونية .

ولكن الحق أن هذا الشعور لم يكن وحده المتسلط على العقول : هناك ضرورة أخرى كانت تعذبها ، ضرورة تزداد إلحاحاً كل يوم . كانت الرياضيات وجها من أوجه المعرفة : ولكن هل كانت حقا الوجه الوحيد ؟ هل تجريد كل شئ هو معرفة كل شئ ؟ لعل الهندسة قد تجاوزت حدودها ، فى انتصارها ؛ والدليل على ذلك أن ديكارت ، العالم الهندسى الفائق ، قد تاه فى علم الطبيعة. المشاهدة ، والتجربة : ذلك ما كانت تنصح به الفلسفة الجديدة ؛ فهل كان يجوز أن يستخف بها العلم ؟ كان الناس يسمعون صوت جاليليو ، وأكثر منه صوت بيكون الذى لم ينسوه أبداً . لقد قال بيكون — وكان العالم لا يزال يتذكر قوله — إنه يجب أن نبتدئ بالمشاهدة ، وإن الذهن البشرى يدرك الأشياء عن طريق الحواس ؛ وإن صور الحواس — بنقلها إلى الذهن — تصبح موضوعاً لأحكام العقل ؛ وإن العقل بدوره ، يردها صافية مصححة ؛ ولذلك يجب أن تبتدئ الفلسفة الصحيحة من الحواس لكى تشق للادراك طريقا مستقيما ، ثابتاً وأكيداً . كان علماء الهندسة قد أكدوا ، بناء على تعريفهم

---

(١) رواية كوميدية ألفها بورسو Boursault فى عام ١٦٨٣ ، وميركورى هو إله التجارة فى الميثولوجيا اليونانية . وهو الزئبق أيضاً . [المترجمان]

للمادة ، أن الفراغ ليس له وجود ؛ وعلى إثر ذلك أثبت علماء أخر ، بناء على تجاربهم ، أن الفراغ (١) موجود ولا شك فى وجوده ؛ لقد وجد أولئك الأخيرون الحقيقة الصحيحة ، بتوفرهم على دراسة الواقع الملموس . الواقع . الخضوع للواقع . كان هذا هو الواجب .

هيا بنا ، فلا زالت أمامنا مهمة لنشرع فيها : مهمة شاقة . فلابد من من تغيير اتجاه العقل البشرى من جديد ، لابد من البحث ، والعمل ، والكد ، وعلى الأخص التوصل إلى نتائج إيجابية ؛ فلنحتفظ بعون الرياضيات التى تمثل يقيننا ، لكن مع الوصول إلى نمط جديد من المعرفة ، التى لا تجرد الكائن ، بل تقبل تركيبه لكى تسيطر عليه . وكان هذا مجهوداً جماعيا من قبل أوربا التى تسير فى طريق التبادل . انظر إلى الايطاليين المجتمعين فى مجمع سيمنتو بفلورنسة . كل ظاهرة طبيعية موضوع بحث علماء ذلك المجمع : لماذا يوجد دود فى الفواكه ؟ ما هذه الافرازات التى تظهر على الغصون والأوراق ؟ لماذا تضئ السمكة فى الماء ، ولا تضئ إذا خرجت إلى الهواء ؟ إنهم يبحثون . وليس لديهم معمل ولا عدة ، ولا يكادون يخلعون ثيابهم الرسمية وشعرهم المستعار حتى ينكبوا على العمل . إنهم يبحثون . إنهم يصنعون الأدوات ، ويكثرون من التجارب ، ويقولون : حقا ، إن المثل الأعلى للمعرفة هو الهندسة ، ولكن هذه الهندسة تتركنا لتحلق فى الفضاء اللامتناهى : حينئذ نتجه نحو

(١) الفراغ Le Vide : كان الاعتقاد السائد من قديم أن الطبيعة لا تقبل الفراغ . وكان أشهر علماء الطبيعة ينكرون أن الفضاء يمكن أن يكون فارغاً على الاطلاق أى محتوياً على عدم . وكانت هذه المسألة موضع اهتمام العلماء وعلى الأخص جاليليو وتلامذته وطورشيلى وغيرهم . وبدأ باسكال يهتم بها ويجرى التجارب منذ صيف ١٦٤٦ حيث أخبره صديق أن رجلا اسمه جان باريبه يحاول انتشال الذهب الغارق مع السفينة « سنغال » بوساطة جهاز يستعمله غواص . ونجح باسكال فى تجاربه لاثبات وجود الفراغ ، إذ وجد أن أى نوع من السائل إذا وضع فى امبوبة اختبار مقلوبة ، فانه يتوقف عند ارتفاع معين ، متناسباً دائماً مع كثافة السائل . وبين السائل وطرف الأمبوبة مسافة فارغة فى الظاهر ، أثبت باسكال أنها فارغة فى الحقيقة . ويرجع سبب هذا التوقف إلى كثافة الهواء . وقام بتجربة كبيرة أمام العلماء والفلاسفة ليثبت لهم ذلك ، تفصيلها فى كتاب « باسكال » بقلم ستيفان فالوت الفصل ٢ ، وكتاب « أفكار باسكال » بقلم ستروفسكى ، الفصل الأول ص ١٤ Stephen Valot, *Blaise Pascal,* (B. Grasset), Paris 1945. — F. Strowski, *Les Pensées de Pascal,* (Mellottée) Paris. [المترجم]

التجربة التى تقودنا إلى الحقيقة ، بفضل البراهين والبراهين المضادة . ولما انحل مجمع سيمنتو فى عام ١٦٦٧ ، لم يمت التقليد الايطالى ، بل هو سيدوم طوال القرن التالى بفضل مارسيجلى ، وفالسنيرى ، وجوالتيرى ، وكلاريسى ، وميشيلى ، ورامازينى ، وفورتيس ؛ ولسنا ندعى أننا ذكرناهم كلهم . نشر جيوفانى ماريا لانسيزى فى عام ١٧٠٤ ، فى صحيفة « جاليرى دى سنيرف » مقالا عن : طريقة التفلسف فى الفن الطبى ، يثبت فيه أنه من الأفضل للطب العقلى ، أن نستعمل الفلسفة التجريبية بدلا من أية فلسفة أخرى .

ولم يبد الفريق الانجليزى ، الذى يتميز فيه بويل ، نشاطا أقل : لقد استحقت « الجمعية الملكية » إعجاب أوربا . إن أعضاءها الحكماء المهرة ، لا يهتمون باظهار ذكائهم وقوة ذاكرتهم فى مقالاتهم ، اهتمامهم بتقدم العلوم والفنون بفضل الوصول إلى نتائج راسخة . بحيث إنهم يفحصون أولا حقيقة الفروض التى يمكن تحقيقها فى ميدان الواقع ، ولا يضيعون وقتهم فى الأمور الأخرى . . . ثم يبحثون عن العلل ، بالتفكير وباجراء التجارب الجديدة ، التى تدفع بهؤلاء العلماء الكبار إلى أقصى الأبعاد ، حتى إنهم أرسلوا علماء إلى قمة جبل تنريف (فى جزر الكنار) لاجراء بعض التجارب ، بعد ما أجروا عندهم تجارب عديدة واخترعوا آلات خاصة(١) . »

وأصبح علماء الطبيعة الهولنديون أساتذة فى المنهج الذى بدأ يتشكل ؛ الأطباء ، وعلماء النبات ، وعلماء الطبيعيات ، يتسابقون فى العمل : سوامردام ، هيجنز ، بورهاف ، جرافيساند ، وليوفانهوك . وهذا الأخير ، ذو أصابع خفيفة، ونظرة ثاقبة ، وعقل تغريه الطرافة ؛ وهو يبدأ فى استكمال طريقته الفنية أو « التكنيك » كما نقول اليوم ؛ ولا يرتاح إلا بعد أن يصنع بيده ، وبعد تجارب عديدة ، مجهراً أقوى من الذى استعمله أسلافه . ولقد نجح وتوصل إلى مجهر يكبر الأشياء مائتين وسبعين مرة . إنه يرى عالما فى قطرة من الماء : ففيها مخلوقات دقيقة تتحرك ، وتتقاتل ، وتبحث عن غذاء ؛ إن هذه القطرة مأهولة بالسكان كأنها محيط ، إن الحياة تختلج فيها بكل مظاهرها . وهو

---

(١) سوربيير Sorbière ، ذكره ج. أسكولى ، « بريطانيا العظمى أمام الرأى الفرنسى»، ١٩٣٠ ، الجزء الثانى ، ص ٤٢ .

يطبق التجربة على سوائل مختلفة ، من دم ومنى وغير ذلك . . . ومع ذلك فقد أنكر الناس اكتشافاته ، ولم يكن هناك بد كما يحدث دائما ، من مناقشات ومناقضات ومؤلفات ، وهمة واسعة لكى يسلم الرأى العام بالحقيقة التى رآها بعينه .

ثم نجد رجال اسكندناوة ، أولوس روبر ، توماس باتولان ، نيلز ستنسن ، يجددون الطب باكتشافاتهم التشريحية . والألمان ، مثل أوتو فون جوريك ، الذى واصل التجارب على الفراغ . لقد نشر الألمان — بما هم عليه من نظام وتوفر على العمل الجماعى — صحيفة خاصة ، صحيفة طبية — فيزيقية ، تعرف الناس بأعمال محبى الاستطلاع فى الطبيعة ؛ وقد أثنى عليها بايل ثناء جما ، قائلا إن أصحابها يخدمون العلوم أجل الخدمات ، بمثابرتهم على العمل بلا كلال ، وفى نفس الوقت ، باختراعاتهم وعبقريتهم .

ولقد أصيب الفرنسيون أيضا بحب الاستطلاع فى الطبيعة : فأهل باريس يذهبون إلى متنزه الملك للاستماع إلى دروس التشريح التى يلقيها دفرناى ، Duverney ؛ ويفاخرون بأن لديهم فى شخص نيقولا ليميرى Nicolas Lémery الذى كان صيدليا فيما سبق ، « أول عالم كيميائى معقول » كما قال عنه فولتير ؛ وواحد من أعلام الطبيعة فى هذا الوقت ، وهو ماريوت Mariotte « لقد افتتح فى باريس مكتب جديد للطبيعة ، هكذا أسمى أكاديمية العلوم . قال الأب بنيون الذى يحتفظ بمفتاح هذا المكتب ، إن الطبيعة ستبدو فيه غاية فى البساطة ، وإن هذا المكتب لم يجد من اللائق أن يستعير من أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، مظاهر الأبهة التى يسرفون فيها . وإنه لعلى صواب (١) »

إن إسبانيا نفسها تشترك فى حركة الفحص : تأسست فى أشبلية فى عام ١٦٩٧ جمعية للطبيعة والطب التجريبى . وإنك لترى الأفكار تهاجر ، كما يحدث فى الأدب ، وكما يحدث فى الفلسفة ، بل لعلها أسرع هنا . لقد نشر طبيب توسكانى شهير — جراندشسكو ريدى — بحثا عن الجراثيم ، يبين فيه أن المادة لا تفسد إذا لم تعرض للذباب ، بينما هو يضع بيضه عليها إذا عرضت

---

(١) روح المحاضرات فى أوربا ، ١٦٩٩ ، ص ٢٥ L'esprit des cours de l'Europe, 1699, p. 25

له ؛ وتهتم أوربا العالمة بأسرها باكتشافه هذا . فترى بيير كوست الفرنسي يترجم هذا المؤلف الايطالي ، ثم تظهر هذه الترجمة في هولاندا . كأن في ذلك علامة على تبادل الأفكار . تعرف أحد سكان البندقية ، باولو ساروتي ، بروبرت بويل في لندن ، فتملكته حماسة العلم ، واستقدم معه إلى البندقية « شابين انجليزيين خبيرين في تكييف الآلات لاجراء التجارب . » ولما قام الأب تاشارد برحلته الثانية إلى سيام ، طلب منه تيفينو أن يوضح له شيئا يؤكد الناس صحته ، مع شدة غرابته : يقال إن هناك أصدافا على جبل « المائدة » المتسامق فهل هذا ممكن ؟ وسرعان ما يشرع الأب لوبلان والأب دوبيز في تسلق الجبل . ولقد خصصت كبريات الصحف الأوربية حيزاً كبيراً من صفحاتها لمسائل الرياضيات العالية ، وحيزاً أكبر منه للطبيعيات . وكثيراً ماتلبي رسائل القراء عن سيل متأصل للخوارق : إن دجاجة لم يسبق أن وضعت بيضا ، قد وضعت بعد ماغنت بشكل خارق للعادة ، بيضة ثمينة يزيد حجمها عن الحجم الطبيعي ، وعليها رسم لا لمذنب واحد كما اعتقد الجمهور ، بل لنجوم عديدة . عثر الناس على فراشة رأسها رأس طفل صغير . تقيأت فتاة بعض العنكبوت والديدان والحلزون ، وأنواعا أخرى من الحشرات . . . تلك بعض الحوادث الغريبة التي يطرب لها الجمهور . ولكنك تلمس أيضا ، في نفس الصفحات ، المجهود العلمي : إن علماء من كل نوع ، ينكبون على العمل ، مدفوعين بحب استطلاع واحد ، وقلق واحد : كيف تعمل عصارة النماء في الأشجار؟ ما هو تأثير الكنكينا China-China على التحقيق ؟ كيف تؤثر الخلايا؟ تشريح العين ، تشريح المعدة ، مسائل جديدة في القلب البشري . هل وجد قط متوحش هائل؟ فليكن ، فلنتناوله بالتشريح ، بدلا من أن نصيح بأنه معجزة .

ولما تهيأ الجو ، ظهر — كما يحدث في الفلسفة وفي النقد — أحد أولئك الأبطال الذين تستدعيهم الأزمان الكبرى : نيوتون .

***

أليس علامة من علامات الزمن ، أن يجد الرجلان اللذان وصفهما فيكو بأنهما « العبقريتان الأوليان في هذا العصر ، ليبنتز ونيوتون » ، في آن

واحد تقريبا ، حساب النهايات الصغرى ؟ إن تطبيق هذا المنهج الجديد يسمح لنا بأن نعد الظواهر الطبيعية لا كأنها غير مستمرة — وهى ليست كذلك فى العموم — بل كأنها مستمرة — كما هى فى الواقع . ما أهم المكانة التى احتلها فى تطور الفكر البشرى ذلك العلم الذى كان الناس السذج لا يزال يراودهم الظن فى أنه يمكنهم الاستغناء عنه بسهولة ! لقد لاحظ الناس أنه ، كلما ظهر نظام من نظم الرياضيات ، يظهر مذهب يبنى على هذا النظام نظرية شاملة عن الأشياء : فعلى علم الحساب قام مذهب فيثاغورس ، وعلى الهندسة قام مذهب سبينوزا ، وكذلك على علم النهايات الصغرى قامت فلسفة ليبنتز(١) . والواقع أن هذا الأخير أعلن بنفسه أن الرياضيات تقدم للفيلسوف العون الأساسى ، وأنه ما كان ليجد أبداً نظرية الاتساق ، لو لم يضع أولا قانون الحركة . بينما كان نيوتون يصل ، بوساطة علم النهايات الصغرى ، إلى كشف قوانين الجاذبية .

لقد ظهر منذ عام ١٦٨٧ ، فى الواقع ، المؤلف الجبار الذى يتضمن شرحا لهذه القوانين « مبادئ رياضية للفلسفة الطبيعية . » وما كان أبعد هذه المبادئ عن أن تفهم بمجرد أن تظهر ؛ فانها لن تؤتى ثمارها إلا فى القرن التالى ؛ إن القرن الثامن عشر سيتغذى ، فى الفلسفة وفى النقد وفى كل شئ ، بما كشفته نهاية القرن السابع عشر ؛ فان الناس لا يهضمون هذه المواد الدسمة إلا ببطء . إلا أن هذه « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية » لا تعد الرياضيات كل الفيزيقا — كما أراد ديكارت — بل آلة تستعملها الفيزيقا فى اكتشافاتها وتجاربها . إن هذا المؤلف الخالد يرد للبحث والتجربة مكانتهما ، وقيمتهما . الاهتمام بالواقع ؛ الاذعان للواقع ؛ التواضع أمام الواقع ؛ وكراهية شبه غريزية لكل نظرية لا تحققها التجربة الواقعية : تلك كانت بعض نواحى عبقرية نيوتون ، وكان اكتشافه الكونى يبدو كأنه تمجيد عظيم لمبادئه ، أو جزاء على إصراره على رأيه . إن الخيال الشعبى ، الذى يتصور نيوتون جالساً تحت شجرة ، متأملا فى سقوط التفاحة ، سائلا عن السبب فى سقوطها ، لا يخطئ

---

(١) ليون برونشويك ، مراحل فلسفة الرياضيات ، ١٩١٢ ، Léon Brunschvicg, *Les étapes de la philosophie mathématique*, 1912.

كثيراً حين يرمز إلى فكر يبدأ خطواته من الواقع الملموس . فانه يحقق إلى مدى بعيد ، الرغبة التى كانت تحرك فرق البحاث الذين رأيناهم يعملون من قريب فى صبر وحمية . تقبل الواقع الملموس ، وتفسيره بالعقل ، وتحقيق نفس هذا التفسير بالواقع الملموس : ذلك هو قانون العلم الصريح الذى كانت هذه الفرق تسعى إلى وضعه .

عندما يخطب فونتنل ، السكرتير الدائم لمجمع العلوم ، مثنيا على إسحق نيوتون ، وعندما يعرض اكتشافاته ، بتفكيره الواضح ، حتى يتوهم غير العارفين أنهم قد أدركوها ، وعندما يشتد أسلوبه ويحتد ، دون أن يفقد شيئا من وضوحه وجماله ، كأنه تحت تأثير النفثة المبدعة للرجل العظيم الذى سيعمل على تمجيده : عندئذ سنرى مقارنة ، لن تكون زخرفا من البلاغة ، بل ستجابه ديكارت بنيوتون وجها لوجه ، وهو ما كان صوابا ، وما كان مرغوبا ؛ وبالرغم من تحيز فونتنل لأستاذه ديكارت ، فسيبين تمام التبيان ، الفرق بين الحالتين الفكريتين اللتين تسجلان — كما يقول — حدود العقل البشرى :

« إن الرجلين اللذين يقوم بينهما هذا التعارض البين ، كانت تجمعهما صلات كبيرة . كان الاثنان عبقريين من أعلى طراز ، ولذا ليتسلطا على العقول وليشيدا الممالك . ولما كانا عالمين ممتازين فى الهندسة ، فقد أدركا ضرورة إدخال الهندسة فى ميدان الفيزيقا . ولقد أقاما علمهما الفيزيقى على هندسة لا مصدر لها تقريباً إلا ضوء معارفهما الذاتية . ولكن أحدهما تجاسر فأراد أن يرتفع إلى غاية مصدر الأشياء ، لكى يتمكن من المبادئ الأولية ببعض أفكار واضحة أساسية ، حتى لا يكون عليه بعد ذلك إلا الهبوط إلى الظواهر الطبيعية على أنها نتائج ضرورية . أما الآخر ، فكان أقل جرأة أو أكثر تواضعا ، فبدأ خطواته مستنداً على الظواهر لكى يرتفع منها إلى المبادئ المجهولة ، معتزماً أن يتقبل تلك المبادئ حسبما تتولد من سلسلة النتائج . لقد بدأ أحدهما بما كان يدركه تمام الادراك ليصل إلى علة ما كان يراه . بينما بدأ الآخر بما كان يراه ، ليصل إلى علته . . . »

كذلك نرى فونتنل عندما يستطرد فيتحدث عن « علم البصريات » أو عن « بحث عن الضوء والألوان » اللذين نشرهما نيوتون فى عام ١٧٠٤ ، يجيد

تبيان دور فن التجربة ، وقيمته ، وصعوبته ، وما فيه من جمال :

« إن فن إجراء التجارب ، إذا سمونا به ، لا يعد شيئا عادياً أبداً ، إن أقل واقع يعرض لنا ، ليتضمن كثيراً من الوقائع الأخرى التى تكونه أو تعدله ، حتى إننا لا نستطيع أن نميز كل ما يدخل فيه دون حذق كبير ، ولا نستطيع أن نخمن ما يمكن أن يدخل فيه دون بصيرة ثاقبة . يجب تجزئة هذا الواقع إلى وقائع أخرى لكل منها تركيبها الخاص . ولو أننا لم نحسن اختيار طريقنا ، لدخلنا فى تيه لا مخرج لنا منه . يبدو أن الوقائع الأولية والأصلية قد أخفتها الطبيعة عنا ، بنفس العناية التى أخفت بها العلل ، وإذا أمكننا أن نراها ، يخيل إلينا أنها مشهد جديد كله ، ما كنا لنتوقعه . »

إن فى ظهور الفيزيقا التجريبية تأييداً لحالة فكرية غزيرة النتائج ؛ فنيوتون يسجل بساطع عبقريته ، هذا الانتقال من ميدان العقل إلى ميدان الواقع ، وهو ماحاول بوفندورف أن ينفذه فى القانون ، وريشار سيمون فى تفسير الكتاب المقدس ، ولوك فى الفلسفة ، وشفتسبرى فى الأخلاق . ولقد أبعد — وهو يمتلئ ثقة — كل ما كان يتصوره العالم من مخاوف من تمادى عقل ، بقى زمناً طويلا يعد قوة هدامة .

لقد حقق الاتحاد بين مقتضيات النقد ووقائع التجربة — وهو ما كان يبدو من الصعوبة بحيث يعد مستحيلا . لقد شرع الانسان يغزو العالم من جديد .

***

ألقى الطبيب بويرهاف Boerhaave فى ٨ فبراير ١٧١٥ أمام مجمع ليدن ، خطابا بعنوان De comparando certo in physicis ، يلخص فيه النتائج التى وصل إليها العالم فى خلال السنين السابقة : لقد فشل كل ما أجرى من محاولات لمعرفة كنه الأشياء ، فالعلل الأولية والجواهر ليست فى متناولنا ، إننا نكثر من ترديد كلمات من قبل الذرات والجواهر الفردية ، على حين أنه ينبغى أن نعرف الآن ، أنه ليس هناك إلا فروض ستكذبها الأيام . لقد بين نيوتون نفسه ، أنه فى كلامه عن قوة الجاذبية ، قد تحاشى أن يقع فى ضلال

المدرسيين الذين كانوا يشرحون العلل التى تستعصى على إدراكهم ، بصفات سهمة . إن الأمر يبدو كأن الأجسام يجاذب بعضها بعضا : ولكن لماذا تتجاذب ؟ هذا هو مايتحاشى شرحه ، إنه يشاهد ظواهر واضحة محسوسة ، ويقارن ويحسب النتائج : ويقف عند هذا الحد . وعلى ذلك ، فلنعد تلك الميادين الميتافيزيقية التى تاه فيها عدد كبير من الفلاسفة ميادين محرمة . فلنقتصر على النتائج التى تحرزها التجربة وتؤيدها ؛ ولندع الميتافيزيقا ، ولنتجه صوب الفيزيقا ، فهنا فقط سنبتدئ فى معرفة الصفات الصحيحة للطبيعة ، التى فاتنا إدراكها حتى الآن .

كل شئ يلمس ، هناك شكا آخر تغلبنا عليه : الشك الفيزيقى Pyrrhonismus physicus كقول بو يرهاف نفسه . كان من المحال أن يلقى خطابه هذا لولا التغيرات التى نحاول أن نتبع مجراها . إن الطبيب الهولندى الكبير يلخص مبادئ حكمة حديثة ، فلسفة عامة كان لوك قد عبر عن جوهرها . لقد كل الناس من البحث عن الحقائق الجوهرية ، واقتنعوا أنهم لن يستطيعوا إدراكها ، فعملوا على وضع بيان بالمجال المحدود الذى يمكنهم أن يسودوه . فليفلحوا هذا الميدان ! وليبنوا فيه مسكنا مريحاً ! وليجعلوا عملهم أقل مشقة وأوفر ثمرة ! وليكونوا فيه سعداء ، سعادة تزداد كل يوم ! ومن الذى سيأخذ على عاتقه أن يرشدهم فى ذلك العمل ؟ العالم ، الذى عليه أن يدير الحياة ، ولذا فله الشرف العظيم . فيعلن الناس تفوقه على الأمراء والغزاة ، و يمدحونه فى المجامع ، إنه يستحق تلك الصفحات البليغة التى كانت تخصص للكتاب فقط فيما سبق . وهو جدير أيضاً بترؤس الشئون العامة : لقد رأى الناس أنه إذا كانت السياسة عبارة عن « حساب » رفيع أو ترتيب دقيق ، فلا ريب فى أن العالم سيمتاز فيها ؛ عندما كان نيوتون عضوا فى البرلمان الانجليزى ، لم يكن مثالا سيئا لعضو البرلمان . إن المؤرخ يفتخر بالتأمل فى الحركات التى تثير الشعوب ، والتى تولد الدول أو تقلبها : إنها لمتعة تافهة ، بالنسبة للمتعة التى يختص بها العالم ! — « إن أغرب صفحات التاريخ ، لا تكاد تكون أغرب من الفوسفور ، ومن السوائل الباردة التى تولد اللهب إذا خلطت ، ومن أشجار الفضة ، ومن التأثيرات السحرية للمغناطيس ، ومن عدد لا يحصى من الأسرار التى اكتشفها الفن بالبحث فى

الطبيعة ... (١) » أى عجب بعدذلك ، فى أن يأخذ الشعر فى تمجيد المجهر ، والآلات التى تدور بالهواء المضغوط ،والباروستر ؛ وفى وصف الدورة الدموية ، أو انكسار الأشعة ؟ ليس فى عمله هذا إلا تمجيد للفكر الحديث .

سيزداد اتساع المعارف على الدوام : اليوم ، كشفت الجاذبية ، وغدا ستظهر عبقريات أخرى تكشف لنا عن أسرار جديدة ؛ بحيث إننا سنكشف رويداً رويداً ، كل أجسام « الآلة الاعجازية » التى جهلناها حتى الآن . إن المعارف ستعطينا القدرة . فالعلم مفيد حتى لو بدا فى الظاهر كأن لا غناء فيه . ليس عبثاً أن نعلم كيفية التفكير المحكم الدقيق ، وتكوين ذهننا طبقا لصراسة قوانينه . ولكن العلم النظرى يولد الواقع دائماً : Theoriam cum praxi (٢) « إن معرفتنا أن ما تحت المماس فى القطع المكافئ ، يساوى ضعف الاحداثى الأفقى المقابل ، لمعرفة مجدبة فى ذاتها ولكنها ضرورية للوصول إلى فن رمى القنابل بالدقة التى وصلنا إليها فى الوقت الحاضر » — « لما جعل أكبر علماء الهندسة فى القرن السابع عشر يدرسون منحنياً جديداً سموه سيكلويد Cycloïde لم يكن فى ذلك إلا بحث نظرى محض . . ، بينما تعمق بحث طبيعة هذا المنحنى جعل من نصيبه أن يهيئ للساعات كل الكمال الممكن وأن يذهب بقياس الزمن إلى أقصى درجات الكمال . » ماسن شك فى أن نفوذنا على الطبيعة سيزداد بلا انقطاع ، وسنسير منتقلين من أعجوبة إلى أعجوبة : سيأتى اليوم الذى يطير فيه المرء إلى عنان الجوزاء . لقد حاول الكثيرون الطيران ، بوساطة جناح يسندهم : « إن هذا الفن سيكتمل ، وذات يوم سنرحل حتى القمر ... » والخلاصة ، « هناك ميدانا فسيحا من المعارف لاستعمال الناس ولافادتهم : اختراع آلات جديدة سريعة توفر عملنا أو تسهله ، وترتيب وسائل أو مواد عديدة تضمن لنا منتجات جديدة ومفيدة ، يمكن أن نستعملها ، وبذا نزيد

---

(١) هذه التعبيرات وما بعدها مأخوذة من أنشودة العلم لفونتنل فى مقدمة تاريخ « تجديد الأكاديمية الملكية للعلوم » ، ١٧٠٢ .

(٢) تعبير لبنتز فى خطبة بمناسبة افتتاح أكاديمية برلين : *Denkschrift über die Errichtung der Berliner Academie* (Deutsche Schriften, B. II, p. 268). أنظر أيضا برنامجه عن العلم العام : (Opuscules et fragments inédits, éd. Couturat, p. 218).

مجموع ثروتنا ، أى الأشياء المفيدة ليسر حياتنا . . . » سوف تصبح الأرض فردوساً ، ولقد أخذ الموت يتقهقر من الآن بفضل هذه « الأخوات العالمات » ، الميكانيكا والهندسة والجبر والتشريح وعلم النبات والكيمياء ؛ اللواتى يفقن عرائس الشعر التى عفا عليها الزمان :

Savantes sœurs, soyez fidèles
A ce que présagent mes vers :
Par vous, de cent beautés nouvelles
Les arts vont orner l'Univers.
Par les soins que vous allez prendre
Nous allons voir bientôt s'étendre
Nos jours trop prompts à s'écouler ;
Et déjà sur la sombre rive
Atropos en est plus oisive,
Lachesis a plus à filer . . . (١)

***

أى شعور بالانتصار ، وأى ترقب سعيد فى هذه الكلمة وحدها : التقدم ! إنها تهيئ الكبرياء التى تصعب بدونها الحياة ، وذلك الرجاء فى المستقبل الذى لا يتعارض والحاضر بل يكمله ويجمله . إن منهجنا يتقدم . إن علمنا يتقدم . إن قدرتنا على العمل تزداد . حتى مزايا ذهننا تتحسن . « كل العلوم وكل الفنون التى كان تقدمها قد توقف تماما منذ قرنين ، قد اكتسبت فى هذا العصر قوى جديدة ، ودخلت فى دور جديد . . . (٢) » — « ها نحن أولاء

---

(١) هودار دى لاموت ، قصيدة إلى السيد بنيون (مجمع العلوم) :
أيتها الأخوات العالمات ، لا تكذبن ما تنبئ به أشعارى — بفضلكن ستزين الفنون الكون بمئة شئ جميل جديد — وسنرى قريبا بفضل عنايتكن ، امتداد أيامنا السريعة الجريان ، وقد بدأت أتروبس تتعطل من الآن ، على شاطئ النهر الظليل ، بينما نشاط لاشيسيس قد ازداد .

أتروبس ولاشيسيس : فى المثيولوجيا الاغريقية اتروبس إلهة تقطع حبل الحياة ، ولاشيسيس إلهة أخرى تدير المغزل وتوزع النصيب ، والأثنتان من ملكات الأجل الثلاث المشهورات باسم Parques . [المترجمان]

(٢) فونتنل ، المقدمة المذكورة سابقا .

فى عصر سيصبح من يوم إلى يوم أكثر إشراقا ، بحيث لن تبدو العصور السالفة بالنسبة إليه إلا ظلاما . . . (١)» بدأ الناس يصرفون قلقهم واضطرابهم ، ولما كان الانسان قد كل من النظر إلى الوراء متأملا فى العصر الذهبى فى ثنايا الماضى البعيد ، ولما كان يخالجه الشك فى الخلود ، فقد أخذ يضع آماله فى مستقبل أقرب ، لعله يستمتع به بنفسه ، وسيصل إليه أبناؤه على كل حال . . .

لقد أصبح العلم من الآن صنما معبوداً . بدأ الناس يمزجون بين العلم والسعادة ، بين التقدم المادى والتقدم الأخلاقى . ويعتقدون أن العلم سيتبوأ مكان الفلسفة والدين ، وأنه سيكفى كل مطالب الذهن البشرى . وحدث رد فعل ، فأخذ الناس يحتجون ، وينعون على العلم ميله إلى تخطى الحدود التى رسمها ، ويتحدثون عن زهوه المتزايد ، ويعلنون إفلاس العلم — فالى هذا الحد يلزم أن نبادر إلى محاربة هذا الاله الذى يوشك على الظهور(٢) .

---

(١) بايل ، أخبار عن جمهورية الأدب ، أبريل ١٦٨٤ ، باب ١١ .

(٢) توماس بيكر ، تأملات عن المعرفة ، لندن ١٧٠٠ . Thomas Baker, Reflections upon Learning, by a gentleman

الفصل السابع

نحو مثال جديد للانسانية

لما اعتزل « رجل البلاط » الايطالى الحياة العامة ، بعد أن مثل دور السيد ودور المرشد ، خلفه « الرجل الفاضل » L'Honnête homme . لقد لقن دروس الحكمة لجيل لا يزال مضطربا مهوشا : كيف ينبغى تقبل النظام الدينى ، والسياسى ، والاجتماعى ، الذى يبدو بعد طول التجربة وكثرة المشاق ، أفضل نظام ؛ كيف ينبغى على كل فرد أن يستقر فى ظله ، دون انقلاب أو عصيان ، لكى يسعد جميع الناس أو على الأقل يعمهم الرضا . وإذا كان هذا الرجل مجموعة من المتناقضات ، فقد وفقت حكمته بينها حتى انتهى به الأمر إلى انسجام تام : التوفيق بين الحكمة القديمة وفضائل المسيحية ، بين مقتضيات الفكر ومقتضيات الحياة ، بين الروح والجسد ، بين العادى والجليل . كان يعلم الأدب ، الفضيلة الصعبة ، التى تعنى إرضاء الغير لنرضى عن أنفسنا ؛ ويقول إنه يجب اجتناب المغالاة فى كل شئ حتى فى الخير ، وألا نفتخر بشئ ، إلا الشرف . وكان يخضع لنظام ثابت ، وإرادة قوية : وإنه لمشروع صعب أن يمنع الانسان « الانية » من تخطى حدودها ، وألا يقدرها إلا كجزء من قيمة شاملة . وإن التزاماً مثل هذا ليقتضى بطولة رصينة ، فما يبدو الرجل الفاضل جذاباً إلا لأنه ينظم قوته النفسانية ويتصرف فيها باتزان ، وانسجام .

وكانت صورته لا زالت تتلألأ فى نهاية العصر ؛ وكان البعض لا يزال ينظر إليها بشئ من التقديس ، ويعرضها كمثال للشبان . وأخذ «محترفو» الأبحاث يستغلون نجاح أسلافهم ويكثرون من النصائح والعظات المألوفة . فمثلا : إن الرجل الفاضل يحب المجتمعات ويجد متعة فى البحث عنها ؛ ويقدر مؤلفات الفكر ولا يتكلم عنها بتغرض أو نقد أو غيره . . .

نصائح متأخرة وهراء معاد . لم يكن الأمر يتعلق بتقبل هذا الارتضاء الاختيارى أو الانتفاع منه بأكبر نصيب : بل باصلاح كل شئ ، وبأسرع طريق . لا توفيق ، ولا مصالحة ؛ يجب تغيير السياسة ، والمجتمع . كيف يمكن أن نخضع لدين دولة ؟ إن المحدثين من الناس ، نماذج البدع — مثل الماركيز هاليفاكس الذى يعرض على ابنته مبادئ للحياة — يوصون الجيل الجديد بأن يضع لنفسه دينا خاصا ، دينا لطيفاً ، مريحاً ، ظريفاً ، دينا خاليا من الخوف والحزن : الآن ، لم يعد الله هو الذى يتحكم فى المخلوقات ، بل المخلوقات هى التى تسعى إلى الله ؛ لقد انهارت تقريبا كل المبادئ التى كانت تقوم عليها فلسفة الشرف ؛ وتحطم التمثال الجميل .

وكانت تلك الفلسفة تبدو فيما سبق كأنها من عمل العقل : ولكن الحق أن العقل هو الذى غير اتجاهه . . . لم يعد العقل قوة وسيطة ، تفرض نظاما كله اصطلاح ، بل أصبح قوة ناقدة ، فضيلتها الأولى روح الفحص . إن الرجل الفاضل لم يعد يلائم هذا العقل الذى لا يقنع .

لقد تنازل عن عرشه من تلقاء نفسه . ولما كان قد ساد زمنا طويلا ، فقد دخل شئ من الآلية ، فى طريقة تقليده واتباعه . لم يعد البعض ينظرون إلى الشرف كوسيلة لحياة صالحة ، بل كهدف فى ذاته ، لم يعد يتضمن شيئاً من الأخلاق ، بل أصبح متعة : بحيث إن أولئك الناس غيروا كيانه . يقول الكونت دى جرامون لصديقه ماتا ، وهو يحكى له عما تلقى من تعليم فى أكاديمية السلاح : « تعلم أننى أمهر رجل فى فرنسا ؛ ولذا سرعان ما عرفت كل مايدرس فيها ؛ كما عرفت مايستكمل الشباب ويجعل المرء رجلا فاضلا ، لأنى تعلمت كل أنواع لعب الورق والنرد(١) . » إنه لا يميز بين القشر واللب ، ويظن أن المقامرة — وهى طريقة بسيطة لقضاء الوقت فى صحبة — هى كل الشرف . ولما كنا نعلم من سياق قصته فيما بعد ، أنه يستغل مهارته فى سرقة لاعب وثق به ، فاننا نرى أن الشرف والفضيلة فى بداية القرن الثامن عشر ، لم يعودا يتفقان : ومنذئذ هوى الرجل الفاضل من منزلته ؛ فلابد من مثال آخر لقيادة الحياة .

---

(١) هاملتون ، مذكرات عن حياة الكونت دى جرامون ، ١٧١٣ ، الفصل الثالث .

***

لقد عرضت إسبانيا نموذجا آخر : وكانت مفاجأة ، ولا سيما أن « البطل » الأسبانى لم يكن خلقا حديثا ، بل يبدو كأنه يبعث من جديد . فى عام ١٦٣٧ نشر الأب بالتازار جراسيان ، من جماعة الجيزويت ، كتاباً عنوانه « البطل » *El Héroe* ؛ وفى عام ١٦٤٠ « السياسى » *El Político* ؛ وفى عام ١٦٤٦ « الرصين » *El Discreto* ؛ وفى عام ١٦٤٧ « كتاب الهاتف الالهى » *El oraculo manual* وفى ١٦٥١ ، ١٦٥٣ ، ١٦٥٧ « الناقد » *El Criticon* ؛ كل هذه المؤلفات محورها دراسة الانسان ، وتكوين نموذج من صفاته المختارة ؛ وكان المتوقع أن تبطل بدعتها ، طبقاً للقانون العادى ، وعلى الأخص فى زمن كانت الأفكار فيه تسرع فى جريانها . فلماذا ترجمت فى نهاية القرن السابع عشر مؤلفات بالتازار جراسيان بتلك الكثرة ؟ ولماذا أغدق عليه هذا الثناء ؟ إنه لم يكن رجلا مجهولا : لكنه بعد ضياء بسيط انتهى إلى سناء المجد الكبير . ولعل السبب فى ذلك ترجمة فرنسية سلسة لمؤلفاته ، — بقلم اسلو دى لاهوسيه ، فى عام ١٦٨٤ — ، هذه الترجمة وإن كانت قد أضاعت شيئا من نكهتها الأصلية ، إلا أنها أضفت عليها شيئا من الروح الأوربية التى كانت تعوزها ، من قبيل التعويض . ولعل جماعة الجزويت ، وقد نسيت خلافها القديم مع المؤلف ، شاركت من جهتها فى هذا النجاح المتأخر . ولعل السبب أنه كان هناك جمهور واسع لا ترضيه الميول الحديثة ، ويجد فى التغذية الأرضية شيئا من المرارة ؛ وكما يقول ستاندال إنه يكمن دائما فى القلوب شئ إسبانى . ولعل سرد ذلك إلى أسباب لاندركها : فنحن لا نستطيع أن نشرح كل شئ .

والواقع أنه ظهر من عام ١٦٨٥ إلى ١٧١٦ فى فرنسا فقط ، خمس عشرة ترجمة لكتب جراسيان . وتحمست ألمانيا للعالم الأخلاقى الاسبانى : قدمه توماسيوس — فى خطابه الافتتاحى المشهور الذى ألقاه ضد تقليد الفرنسيين الذليل — كأحد الأساتذة الذين يجب أن يستوحيهم الألمان ، إذا كانوا يريدون تهذيب أخلاقهم ، فيشيد به فى بداية خطبته وفى نهايتها . وفى انجلترا ، وفى ايطاليا ، وفى كل مكان ، يلقى جراسيان التشريف والتمجيد .

فالرجل المثالى — إذا صدقنا قول جراسيان — ليس هو الذى يقنع بمجموعة منسجمة من المزايا المتوسطة : فالفضائل العادية ، مهما تعددت ، لا تصل بالمرء إلا إلى مستوى عادى : بل هو الذى يدفعه طموح أعلى ، لأنه يريد أن يتفوق فى كل ميدان عظيم . الرجل المثالى ذو ذكاء خارق ، ورأى سديد ، وعقل من لهيب ، وعاطفة مرهفة ، (لأنه ماذا يساوى الذكاء إذا افتقد القلب ؟) ؛ يختار بقدرته الغالبة ، ويضع ثقته — بالحدس — فى مقاصد الحظ ، الذى يحب من يقابله بالعنف ؛ يهدف إلى أجل النماذج جمالا فى كل نوع ، لا لكى يصل إلى مستواها ، بل لكى يتعداها : إنه من يسعى ليكون « الأول والوحيد » . لذلك يجب أن يحيط نفسه بجو من الغموض ، وأن يكون قادراً على انتظار ساعته ، بل يجب أن يخفى دوره : إلى هذا الحد يجب ألا يكشف عن نفسه إلا تدريجا ، ليثير كل مرة تعجب العامة ، أمام قوة لا ينضب لها معين . إن « البطل » يحتمل كل ألم ، ويصبر على كل إهانة : فالاهانة الوحيدة الحقة هى التى يجب أن يفرضها على نفسه ، أمام محكمة ضميره ، إذا وجد أنه قد حط من شأنه . إن الانتصار ليس غاية ، والسيطرة على الدنيا ليست إلا وسيلة : يهب البطل « إنيته » المنتصرة المتفوقة لله ، ويرد للدين مافاز به من سيادة خلقية . إنه ساهر حتى إنه يضفى على خبثه لونا مقدساً ، ويستر كبرياءه بقناع من السذاجة ؛ خيالى مع معرفته التامة بحقيقة القلب البشرى ، وعملى مع ولعه بالجمال المثالى ؛ متحمس ، متجبر ، متدين ، يحب المشاكل لما فيها من حدة وصعوبة ، عجيب ، عظيم ، متناقض : هكذا ترسم صورته . إن « الرجل الفاضل » ، — الذى خلق ليوائم مشاهد (جزيرة فرنسا) الوديعة الهادئة ، الغبراء — تودى به المقارنة مع البطل : فالبطل يتطلب نفس الشمس التى كانت تلفح دون كيشوت فى طريق الكاستيل والتى كانت تجعل العدل ، والطيبة ، والحب تتلألأ أساسه .

لقد راق فى عين أوروبا ؛ ولكن للحظة . كانت تستطيع أن تتأمل جراسيان بحب استطلاع وعطف ، وأن تقرأ كتبه ، وتجد فيها دراسة وتسلية : ولكنها لم تستطع أن تتخذ منه دليلا ومرشداً . فقد فات الوقت ، وكانت قد اتخذت قرارها ، ولم يمكنها أن تتراجع . فاذا كان الرجل الفاضل لم يعد يرضيها فكيف كانت تستطيع أن تتبع آثار « بطل » أقل منه بعدا عن الدين .

لقد كانت لحظة من تلك اللحظات النادرة العجيبة ، تختلط فيها الشاشة البيضاء ، إذ تتنازعها صورتان مختلفتان ، إحداهما تتأخر فى الانصراف والثانية لا يزال ينقصها الوضوح والوثوق . فقد أخذت الظلال ، تكسو النبيل ، وبدأ « البورجوازى » يتخذ رويداً رويداً شكلا ولونا . لم يعد الناس يقبلون المبدأ الأرستقراطى الذى ساد حتى ذلك الحين . الوداع للمحارب ؛ لقد انقضى الزمن الذى لم يكن يعجب الناس فيه إلا ببطولة القواد ، وغزو المدن ، وكسب المعارك بعد قتال عنيف ، وفرار العدو على أثر هجوم شديد ، وتتويج هامة المنتصر بالغار . يسخر سانت أفريموند من الماريشال دى هوكنكور ، ذلك المغوار ؛ ويعلم فنيلون تيليماك ، على لسان الملك إيدومنيه ، أنه ينبغى أن نكف عن تقدير الملوك المحاربين ، وأن نحب الملوك الحكماء ؛ ويسخر فونتنيل : « أغلب رجال الحرب يظهرون فى مهنتهم شجاعة كبيرة ، ولكن قليلا منهم يفكرون فيما يعملون ؛ إن ذراعهم تتحرك كيفما تشاء ؛ ولكن رأسهم يرتاح ، وإن انشغل ففى غير شئ . » ويحكم بايل ، باسم العقل السليم على « زهو أولئك المحاربين الطاحين » الذين لا يفكرون إلا فى شهرتهم ، بأنه ضعف أخلاقى وجنون ؛ ويستمع جان باتست روسو إلى هذا الكلام فيقول : — ما الغزاة إلا قوم حاباهم الحظ ، الذى يتوج الجرائم التى ليس لها مثيل :

Mais de quelque superbe titre
Que tes héros soient revêtus,
Prenons la Raison pour arbitre,
Et cherchons chez eux leurs vertus.
Je n'y trouve qu'extravagance,
Faiblesse, injustice, arrogance,
Trahisons, fureurs, cruautés,
Etrange vertu qui se forme
Souvent de l'assemblage énorme
Des vices les plus détestés ... (١)

---

(١) مهما بلغ جمال ما يحمل أبطالك من ألقاب ،
فلنجعل العقل حكما ولنبحث عن فضائلهم ،
إنى لا أجد فيهم إلا جنونا ، وضعفا ، وجورا ، وعجرفة
وخيانة ، وحنقا ، وقسوة ،
يالفضيلة العجيبة ، التى تتكون من مجموع ضخم من أقبح الرذائل ...

حتى أبطال الأزمان القديمة العظماء ، ينبغى أن يحرموا من الاعجاب الذى لا يستحقونه ، والذى خلعه عليهم الناس من زمن طويل :

Quoi ! Rome, l'Italie en cendre.
Me feront honorer Sylla !
J'admirerais dans Alexandre
Ce que j'abhorre en Attila !
J'appellerais vertu guerrière
Une vaillance meurtière
Qui dans mon sang trempe ses mains ;
Et je pourrais forcer ma bouche
A louer un Héros farouche
Né pour le malheur des humains ! (١)

إن الفاتح لرجل قد سلطته الآلهة — الحانقة على البشر — على العالم ، لتخريب الممالك ، لنشر الذعر والفقر واليأس فى كل مكان ، ولبخلق عبيداً أرقاء بقدر ما يوجد من أحرار . — إن أولئك الغزاة الكبار الذين نخلع عليهم صفات التمجيد ، لأشبه بتلك الأنهار التى تفيض فتبدو رائعة ، ولكنها تخرب كل الأرض الخصبة التى كان عليها فقط أن ترويها . — من صاحب هذا الكلام ؟ « فنيلون » أيضاً ، فى الجزء الثامن من « تيليماك » .

ومسألة الشرف ؟ لقد افتتن به الناس كل الافتنان ؛ إنه اعتقاد باطل حان الوقت للتحدث فيه . إن خرافة مسألة الشرف هذه تقود إلى المبارزة ، أى إلى أسوء الجنون . وقد اتفقت الصراحة الانجليزية والعقل الفرنسى ضد الرذائل التى يتظاهر بها النبلاء عادة ، بحسبانها من الأناقة ، وضد فساد الأخلاق ، وشهوة المغامرة ، وعادة التجديف ، حتى إن « النبيل » أوغل فى الظلام مصحوبا باللعنة .

حينئذ ظهر « البورجوازى » ، مبتسما ، تلوح عليه أمارات الرضا والفخار ! وكان « ستيل » Steele و « أديسون » Addison بمثابة إشبينين له ؛ كانا

---

(١) ماذا ...! هل من أجل روما وإيطاليا المدمرة أمجد سيلا !
هل يعجبنى فى الاسكندر ما أكرهه فى « أتيلا » !
هل أعد تلك الشجاعة القاتلة — التى تخضب يديها بدمى — فضيلة حربية !
وأقسر لسانى على مدح بطل متوحش ، ولد لاتعاس البشر !

عالمين أخلاقيين ، ماهرين ، حكيمين . لا ينقصهما إلا شئ من قوة التركيز ومن الجرأة ؛ ومع ذلك فقد أجادا تصوير مثال جديد للانسانية ، وفرضاه على القراء العديدين ، الذين وجداهم أولا فى انجلترا ، ثم فى أوروبا كلها . وإذا كان حقاً أن وراء كل نجاح أدبى باعثاً اجتماعياً ، فقد كان الباعث هنا سايلى : تطوعت مجلتا *Tatler* و *Spectator* بتقديم مثال للانسانية ، إلى زمن كان لا يزال يبحث عن قوانينه : ذلك أنهما كانا يفحصان الانسان ، لمجرد التسلية فى تصويره لا شك ، ولكن أيضاً لأنهما كانا قد شرعا فى إصلاحه . كلما كانت صحيفة تخرج من مطبعتهما ، وتنشر فى مقاهى لندن ، ثم تجتاز البوغاز ، كانا يوجهان رسالة إلى مجتمع فى حاجة إلى أصول للأدب واللياقة والواجب ؛ ويشاركان — كما تقول صحيفة *Tatler* فى توطيد شرف الطبيعة الانسانية . كانا ينقضان خطأ ، أو يصلحان ضرراً ، وأكثر من ذلك ، كانا يرشدان إلى ما يجب فعله ، بعد تبيان ما يجب اجتنابه، لاجئين إلى السخرية حينا وإلى اللوم حينا آخر . وكانا يعرفان القدماء و يمجدانهم ؛ درسا علماء الأخلاق الفرنسيين ، مونتانى Montaigne ، وسانت أفريموند ، و « لابروبير » ؛ ولم يجهلا أى نوع من الأنواع الحديثة للنموذج الذى يدرسانه ، من « رجل فاضل » إلى «رجل لبق» ، إلى « رجل ظريف » ، إلى « رجل متعاقل » ، إلى « أستاذ صغير » (١) ؛ ولكنهما كانا يعرفان أيضا أن قلب الانسان ثابت ومتقلب فى نفس الوقت ، وأنه يجب ألا نكف عن العمل على إصلاحه ؛ وتوفرا على العمل : بعد كاستجليونى ، و بنكازا ، ونيكولا فارى ، وشيفالييه دى ميرى ، بعد أولئك اللاتينيين جاء رجلان انجليزيان ، فقد حل دورهما .

فقيه فى القانون ، والتاجر فريبورت ، والربان سنترى ، والدنيوى هونيكومب ، وقسيس : تلك هى الجماعة الصغيرة التى تحيط بالسيد سبكتاتور . ومجمل القول ، أن هذه الجماعة لم تضم إلا بعض البورجوازيين ، فيما عدا البارون السير روجير دى كوفرلى ؛ ولكن سير روجير يبدو من البساطة ورجاحة العقل ، ومخالفة عادات إخوانه النبلاء ، وحب المناقضة وغرائب الآراء ، ومن الرقة والاحسان ، بحيث لا يشبه فى شئ أولئك النبلاء

(١) honnête homme — galant homme — homme du bel air — un petit maître un bel esprit.

الفاسدين الذين شهد أدب العصر السابق ازدهارهم . إن السيد سبكتاتور نفسه يبدو كأكثر الناس بساطة وتواضعاً . كل ثروته عبارة عن عقار بسيط فى الريف ، لم يتغير منذ ستمائة عام ؛ يعرف الكثير ولكنه لا يحب أن يتظاهر به ؛ ولقد رحل إلى كل نواحى الدنيا ، ولكنه لم يتخذ من ذلك سبباً للزهو . إنه رزين ، صامت ، يحب العزلة ، قليل الأصدقاء ، لا يتردد على أقربائه ، ولا يقابل أحداً ، حتى صاحبة مسكنه . ولما كان الناس يرونه يتردد على المسارح ، والمقاهى ، والمحلات العامة فى لندن ، بحثاً فى أخلاق معاصريه ، فقد أخذ البعض يظنه يسوعيا ، والبعض جاسوساً ، والبعض متآمراً ، والبعض مجنونا . « الشئ الذى يعزينى عن هذه المعاكسات التافهة ، هو أنى أجد سروراً فى مشاهدة طبائع الناس بنظرة هادئة ساكنة ، دون رأى مبتسر . ولما كنت قد تحررت من الشهوات والأغراض التى تسيطر عليهم ، فان لى بصيرة أقوى فى الكشف عن فضائلهم ورذائلهم » . وهكذا يقدم لنا السيد سبكتاتور ، ببساطة خلقه وحكمته الهادئة ، نموذجا لحياة جميلة سعيدة .

يقول لنا إن الطبقة النبيلة توشك على الضياع ، لاصرارها على المبارزة من أجل مسألة شرف ليس لها أساس ، ولأنها تخطئ فى معنى كلمة العدل ، إذ تلعب مع محترفى المقامرة ، وتبدد ثروتها بين أيديهم . إنه يسخر من أولئك الذين يضعون كل شرفهم فى ألقاب باطلة ، يكتسبونها مصادفة بمولدهم ، ولا فضل لهم فيها . ويبشر بالأدب و برقة الأخلاق ، ويؤاخذ الناس الذين يضجون فى المسرح ، والنساء اللواتى يشربن الخمر أو يدخن ؛ ولكنه ينوه فى نفس الوقت بأن التهذيب الخارجى ليس كل شئ فى الحياة ؛ بل يفضل توكيد الفردية على إمحاء الشخصية : إن كلا من المجاملة ، والتصنع ، والتكلف تشير اشمئزازه ؛ فقيمة كل امرئ فى صدق طبيعته لا فى تصنعه . إن الناس يخطئون فى ظنهم أن أسمى فضيلة لدى الرجال الشجاعة ، ولدى النساء العفة : اعتقاد باطل مرده إلى رغبة كل جنس فى أن يروق فى عين الجنس الآخر . فالنساء يقدرن الشجاعة عند الرجال فوق كل شئ ، والرجال يكرهون النساء الخائنات . كأنما دماثة الخلق ، وكرم الطبع ، ورقة الشمائل ، ليست فى منزلة تلك المزايا التى يسمونها اجتماعية ، والتى لها مكان الشرف فى العادة ! وبالمثل ينبغى أن يقدم المفيد على الظريف : فالغانيات اللواتى لا يبتغين إلا اجتذاب

الأنظار ؛ والمتعطلون الذين لا يرومون إلا نيل الاعجاب ، والمتكلفون ، الذين غالوا فى الرقة والدقة فى كل شئ ، حتى أصبحوا لا يبالون بالخير والشر ، كل أولئك جنس مشئوم . وإن الدعابة ، والملحة ، والسخرية ، التى يستلطفها الناس ، ليست فى الغالب إلا خبثا محضا . وبعد ، فماذا تساوى حياة المجتمع نفسها؟ هل يجب أن يكون دور الرجل التأنق والتظاهر فى المجالس والمجتمعات ؟ هل فى ذلك كل سعادته ؟ إن السعادة عدوة الأبهة والضجة ، بل هى تبتغى العزلة ؛ إنها تتولد من التمتع الذاتى ، أو من صداقة عدد قليل من الأشخاص المختارين ؛ إنها تحب الهدوء والانفراد ، وتتردد على الغابات والجداول ، على الحقول والمروج : تجد فى كيانها كل ما تحتاج إليه ، وإنها لفى غنى عن الشهود والمشاهدين . وبالعكس ، فان السعادة الخيالية لا هم لها إلا اجتذاب الأنظار ؛ ولا سعى لها إلا وراء إثارة الاعجاب ، حياتها تترعرع فى القصور ، والمسارح ، والاجتماعات ، وتموت بمجرد ما تنصرف عنها العيون . السعادة تقتضى ألا نغالى فى مطالبنا ! والبحث عنها لا يفيد الجنس البشرى بقدر ما يفيده قدرة المرء على السلوان ، وثباته وصبره أمام الأحزان . إن رضى النفس هو كل مانستطيع أن نتوقعه فى هذه الدنيا : فلا تكاد أطماعنا ترتفع حتى تصادفها العوائق والآلام . لنستغل دراستنا وجهدنا لنحصل على الراحة فى الأرض ، والسعادة فى السماء . — إننا نرى كيف يكرر السيد سبكتاتور بعض الصور المعروفة لموضوعات قديمة ؛ ولكننا نرى أيضا كيف يبتعد ابتعادا صريحاً — ولو أنه يلتزم الكلاسيكية — عن مثال الرجل الفاضل ؛ وكيف ينتقل — محاولا أن يشيد حالة رفيعة من المدنية — من الأرستقراطية إلى البورجوازية ، ومن الظاهر إلى الباطن ، ومن المتعة الاجتماعية إلى الفائدة الاجتماعية ، ومن الفن إلى الأخلاق .

تقول مجلة تتلر *Tatler* ، إن التاجر أحق بلقب « جنتلمان » من رجل البلاط الذى لا يشارك إلا بالكلام ، ومن العالم الذى يسخر من الجاهل . وهذا ما تراه مجلة سبكتاتور *Spectator* . إن التاجر جدير بكل الاحترام . فهو لا يعطى لانجلترا القوة ، والغنى ، والشرف فحسب ؛ ولم يرفع مصرف انجلترا — معبد الأيام الحديثة — إلى مجده فقط ، بل يعمل ، بفضل تجارته ، فى سبيل التعاون بين الدول ، ويدفعها إلى المشاركة فى سبيل الرفاهة العامة :

إنه صديق الجنس البشرى . البطل يقنع بشهرة باطلة ، بينما يحتاج التاجر إلى سمعة أدق وأرهف . وكأنما أرق ، تسمى ثقة أو ائتمانا . إن كلمة بسيطة ، أو تلميحاً أو سريان خبر غير صحيح ، يجرح هذا الائتمان ويخرب التاجر : قال نبيل ذات يوم إنه اعتاد أن يتكلم بكل حرية ، عن النبلاء الآخرين ، دون تحفظ ، بينما كان يحرص على ألا يتكلم بسوء عن التجار : لأن فى ذلك قضاء عليهم وإدانة لهم بدون دفاع . هكذا ينتشر شرف من نوع جديد : شرف التاجر .

إن الشخصيات تبدو أكثر حيوية على المسرح ، كما يعلم الجميع ؛ فالكتاب مضطرون إلى المبالغة فيها بعض الشئ ، ليظهروها للعيون . ولا يكتفى ستيل بوصف تلك المنافسة بين النبيل والتاجر فى الصحف فقط ، بل ينقلها إلى المسرح . وكان هذا فى واحدة من أجمل مسرحياته : « The Conscious Lovers » . سيرجون بيفيل ، الرجل النبيل ، يوشك على تزويج ابنته من ابن السيد سيلاند ، التاجر الثرى الذى اغتنى من الاتجار مع بلاد الهند . إنهما يتجابهان : يسخر التاجر من الرجل النبيل ؛ قائلا إن عنده — هو ، سيلاند — سلسلة نسب رائعة : جود فروا ، أبو أدوارد ، أبو بطليموس ، أبو كراسوس ، أبو الكونت ريشارد ، أبو المركيز هنرى ، أبو الدوق جان : كلهم ديكة ممتازة فى القتال . . .

وإذا لم يكن لدى السير جون بفيل المعرفة الكافية ، فان السيد سيلاند يتكفل بأن يوضح له التطور الذى حدث فى انجلترا .

— « اسمح لى أن أقول لك إننا ، معشر التجار ، نوع من النبلاء ظهر فى الدنيا فى القرن الأخير . إن لنا مالكم من شرف ونفع ، يأيها الملاك الذين يعدكم الناس أفضل منا بكثير . لأن مشاغلكم لا تتعدى ، فى الحق ، حمل علف أو ثور سمين . إنكم حقا قوم مضحكون ، لا تصلحون إلا لخلق الكسالى ! »

وهاك صيغة أكثر كبراً

— « إنه الحق كل الحق ، إن التاجر الكامل هو أفضل مثال للنبل فى الشعب ؛ وأنه يفوق كثيراً من النبلاء من وجهة المعرفة ، والحكمة ، وحسن السلوك . »

وخلاصة القول ، أن انقلابا قد تم ، وأن الأدب قد سجله وعمل على نشره :

— « إن مآل عدد كبير من النبلاء أن يجدوا أنفسهم مضطرين إلى التنازل عن إرث آبائهم لأسياد جدد ، كانوا أدق منهم فى إدارة حساباتهم ، ولا شك فى أن الذى اكتسب ملكا بفضل صناعته أحق بملكيته من الذى أضاعه نتيجة لاهماله . . .(١) »

***

هذا الطراز الانجليزى الذى رأيناه يتشكل ، سيؤثر على كل أوروبا تأثيرا عميقاً . ستشيعه الصحف ، وقصص الأسفار ، والمسرح والروايات ؛ وسيسعى أهل البدع إلى تقليده : بساطة فى المظهر ، ثياب بلا زينة ؛ صوف لا حرير ؛ وعصا لا سيف . وبساطة فى الروح أيضاً : خلق صريح يذهب فى مقت الكذب إلى حد الخشونة ، إدراك سليم ، اهتمام بالمسائل العملية : فكما يقول السيد سبكتاتور ، هل ينبغى ألا نهتم إلا بالأدب والفنون الجميلة ؟ يجب أن نوجه الاهتمام أيضاً إلى العمل ، والتجارة ، والادخار ، والفنون الميكانيكية التى تفيد فى استكمال الحياة . يقول بيير كوست — الذى ترجم فى عام ١٦٩٥ كتاب جون لوك عن « تربية الأطفال » — إن الحق أن ذلك المؤلف الانجليزى كتب للشباب المهذب Gentlemen ؛ ولكن لا يجوز أن يخطئ الفرنسيون فى معنى كلمة « جنتلمان » هذه : لأنها لا تشير إلى النبلاء ، بل إلى الطبقة التى تأتى تحت رتبة البارون مباشرة ، أى إلى الأشخاص الذين يسمون فى فرنسا « أناساً من أسرة طيبة » ، أو بورجوازيين طيبين ، « وبذلك يسهل علينا أن نستنتج أن هذا البحث عن التربية لابد من أن يلاقى رواجاً واسعاً ، نظراً لأنه كتب خصيصاً للنبلاء ، على أن تأخذ هذه الكلمة المعنى الذى أخذته فى انجلترا » . هكذا عرضت البورجوازية الانجليزية على لسان بيير كوست ، دعوة إلى البورجوازية الأوروبية .

ولكن لن يملك شعب فيما بعد الامتياز فى أن يكون « طرازا » عالمياً

---

(١) سبكتاتور رقم ١٧٤ .

وحده ، ولذلك سيكون هذا الطراز أكثر تعقيداً وأقل وضوحاً فى معالمه من الطراز الكلاسيكى ؛ ولن يبدو أى مثال فيما بعد ، بتلك البساطة الجميلة التى أضفاها الفن الكلاسيكى على النموذج الذى قدمه للعالم . لقد أخذت فرنسا تبحث من جانبها . فلابد لها — وبذلك يقضى طبعها وإرادتها — من دليل يقودها نحو العقل ، ونحو استقلال الفكر . فعرضت أخيراً المثل الأعلى الذى ستتخذه بصفة قطعية ، البدعة الفكرية فى القرن الثامن عشر : مولد من الانجليزى والفرنسى ، مفكر نظرى وسيد للحياة : الفيلسوف .

فى هذا الوقت ، وقت العمل والتوليد ، فى أى صورة يظهر لنا هذا النموذج الجديد ؟ « الفيلسوف » — كما يقول لنا قاموس الأكاديمية سنة ١٦٩٤ — : « هو الذى يتوفر على دراسة العلوم ، ويرمى إلى معرفة النتائج بمعرفة العلل والمبادئ . . . الفيلسوف هو الرجل الحكيم الذى يعيش عيشة هادئة منعزلة ، بعيداً عن صخب الأمور . . . وهذه الكلمة تنطبق أحياناً على الرجل الذى يعلو بنفسه ، بفضل تحرر فكره ، فوق الفروض والالتزامات العادية للحياة المدنية . »

هذا زمن تتلاحق فيه هذه الملامح المختلفة متتابعة . أولا ، لم يعد الفيلسوف ذلك الرجل ، المحترف ، المتخصص ، الأستاذ ، الدعى الذى لا يقسم إلا بأرسطو أو بأفلاطون ، بل من الجائز ألا يدرس المرء الميتافيزيقا أبدا ، ومع ذلك يكون فيلسوفا . — ثم ، إنه عالم يستعمل عقله ، لا ذاكرته : يدرس علم الفلك ، ويتكلم عن تعدد العوالم ، ويشرح — إن لم يكن لم فعلى الأقل كيف — تدور الأرض حول الشمس . — إنه حكيم ؛ فهو يتخذ لنفسه حياة ناعمة ، يحيط به أصدقاء وصديقات ، دون أن يطمع فى وظيفة أو مهنة أخرى غير وظيفة مراقب بط قصر سان جيمس ؛ وسيتضمن برنامجه الشهوة ، دون أن تشغل حيزاً كبيراً : شهوة معقولة . — إنه متحرر الفكر : هذا هو المهم . إنه يقدر كل شئ فى حرية تامة ؛ ويعيد إلى العقل منزلته الرفيعة ، كما ستقول مدام « دى لامبرت » فيما بعد . إن أولئك السادة أعضاء الأكاديمية يخطئون ، أو لعلهم يسيئون التنبؤ ، فى قولهم إن الفيلسوف يعلو بنفسه فوق فروض والتزامات الحياة المدنية . لأن الفيلسوف ، على العكس ، يبتغى إصلاحها : فلا فلسفة إن لم يستمل الفيلسوف أنصاراً . وأخيراً فسيكون له قلب حار ،

ولكن بعد مدة ؛ يجب أن ننتظر نصف قرن ، قبلما يضطرم قلبه ويشتعل بكل لهبه .

يبدو الفيلسوف ، من بدايته ، خصما للأديان المنزلة . فان قلت إن فى الصين ، جميع مستشارى الامبراطور والمقربين إليه فلاسفة ، فانك تدرك جيداً أنهم ، مثل أستاذهم كونفوشيوس ، حكماء لا دينيون . وإن استمعت إلى فيلسوف يتكلم عن الأخلاق والعلم ، فكن متأكداً أن أخلاقه لن تكون دينية ، وأن علمه لن يكون فيه شئ من القداسة : بل العكس . وإن علمت أن رجلا عاش فيلسوفا ومات فيلسوفا ، فستدرك أن ذلك الرجل مات غير مؤمن . والمدافعون عن التقاليد لا يخطئون فى ذلك ؛ ألف الأب « ليجيبه » فى عام ١٦٩٦ مسرحية لمدرسته ، بعنوان « ديموقليطس أو حكم الفيلسوف » *Damocles, sive philosophus regnans* : كن أحمق وسلم زمام السلطة لفيلسوف ، وسرعان مايقلب أمور الدنيا !

***

فلسفة تكف عن الميتافيزيقا وتقتصر مختارة على ماتستطيع أن تدركه مباشرة فى النفس البشرية . فكرة طبيعة مازال الناس ينكرون طيبتها التامة ، ولكنها مع ذلك عظيمة قوية ، منتظمة ، وموافقة للعقل : ومن هنا دين طبيعى وقانون طبيعى ، وحرية طبيعية ، ومساواة طبيعية . أخلاق تنقسم إلى فروع عديدة ؛ والالتجاء إلى المنفعة الاجتماعية لاختيار أفضل هذه الأخلاق . الحق فى السعادة ، فى السعادة على الأرض ؛ الكفاح ضد الأعداء الذين يحولون دون سعادة الناس فى هذه الدنيا ، ضد السلطة المطلقة ، ضد الخرافة ، ضد الحرب . العلم الذى سيضمن تقدم الانسان ، وبالتالى سعادته . الفلسفة ، مرشد الحياة . تلك هى التبدلات التى حدثت أمام أعيننا ؛ تلك هى الأفكار والرغبات التى ترعرعت قبل نهاية القرن السابع عشر ، والتى اتحدت لتكوين مذهب النسبية والانسانية . الطريق ممهد . وكل شئ معد : يستطيع فولتير أن يقبل .

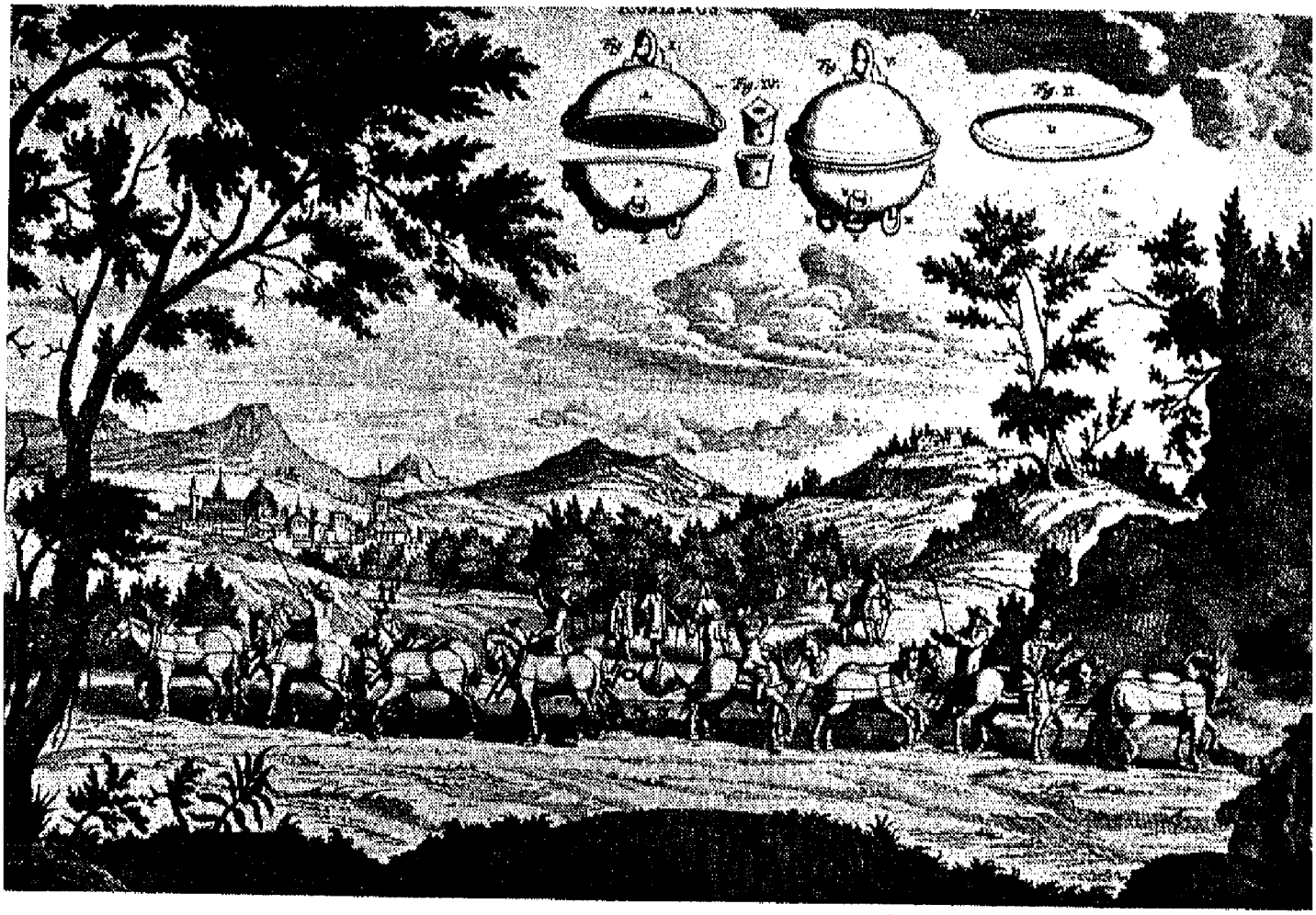

تجربة عن الفراغ (أمستردام ، ١٦٧٢)